

عبـــده وازن

الفتى الذي أبصر لون الهواء

روايـة للفتيـان

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الفتى الذي أبصر لون الهواء

رواية للفتيان

عبده وازن





الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL



الطبعة الأولى
1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0341-2



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

الإهداء

إلى جميع المكفوفين الذين تحدّوا ظلمة البصر

وأفاضوا علينا من نور بصيرتهم

استيقظ باسم باكراً على غير عادته. لم يكن الديك قد صاح عندما نهض من فراشه. نظر من حوله وراح يصغي الى الصمت الذي يرين على الغرفة والذي كان غطيط والده يخترقه حيناً تلو حين. أمّه لا تزال تنام في سريرها وبالقرب منها شقيقته الصغيرة سعاد، وعلى الأرض يفترش شقيقاه أحمد وسهيل الفراش المتاخم لفراشه. أما الأب فكان ينام على سريره المجاور للنافذة التي تطل على الحديقة. كانت غرفة النوم هذه تتسع للأسرة كلّها. والى جانبها تقع الردهة الكبيرة التي تسمى غرفة الجلوس وفيها تستقبل الأسرة ضيوفها.

لم يكن باسم يعلم كم كانت الساعة عندما نهض من فراشه وراح يتلمّس طريقه الى الحمام ثم ليخرج الى السطيحة الواسعة ويجلس على الكنبة التي رطّبها هواء الليل. كان يعلم أنّه سبق صياح الديك الذي كان يدلّ على طلوع الفجر. جلس على الكنبة ورفع وجهه متحسّساً النسمات العليلة التي كانت تهبّ من جهة الحديقة. فرك عينيه ماسحاً آثار دموع ترقرقت ولم يستطع أن يكبتها. يعلم باسم أنّه لم ينم هذه الليلة. أمضى الهزيع الأكبر من الليل يتقلّب في الفراش وشعر للمرّة الأولى ربّما، بأنّ الليل طويل، أطول ممّا عهده سابقاً. بل لعلّه شعر بأنّ هذا الليل أشدّ قتامة من سائر الليالي ومن الظلام الدامس الذي يعيش فيه منذ أن وجد في هذا العالم. كانت الليلة التي بالكاد عبرت، طويلة وقاسية. إنها الليلة الأخيرة

التي ينام فيها على فراشه في البيت والى جانبه شقيقاه. لطالما عزّ فـي قلبـه هذا البيت الذي يحفظ زواياه عـن ظهر قلب. ومثله هذه المصطبة الكبيرة أو «السطيحة» كما يسمّونها، التي قضى فيها أياماً وليالي، لا سيما في فصل الصيف، معانقاً ساعات الصباح الأولى وغروب الشمس وحلول المساء.

جلس باسم على الكنبة وحيداً، يعصر قلبه حزن غير مألوف. إنّـه حزن الوداع أو حزن الافتراق. فاليوم سـيأتي رئيس البلدية لاصـطحابه الـى «معهد الضـرير» الذي يقع في إحدى ضـواحي العاصـمة بيروت. اليوم ظهراً سيغادر أسـرته والمنزل والحديقة والقريـة التي شـكلت باحاتها وسـهولها ملاعب طفولتـه. بدءاً من ظهر اليوم سـيدخل عالماً جديداً وسـيعيش حياة لا يعرف عنها إلا القليـل ممّا سـمعه من رئيس البلدية عندمـا كان يزور العائلة ليقنع الأم بضـرورة التحاق ابنها باسـم، بهذا المعهـد. كان الأب على قناعـة تامّة بهذا المعهد الذي لا بدّ من أن يغيّر حياة ابنه الضـرير الذي بلغ من العمر ثلاثة عشـر عاماً. كان الأب يشـعر في قرارة نفسـه أنّ باسـم أضـاع سـنوات كثيرة من غير أن يتعلّم مهنة أو يتابع دروسـاً تخصّ المكفوفين. وكان على يقين من أنّ ابنه يتمتع بذكاء شـديد وقدرة علـى الحفظ والتعلّم. لكـنّ الأم لم تكن قادرة على تقبّل فكرة أن يُفصَـل ابنها الضرير عنها. وكانت عاجزة عن تصـوّر باسـم يعيش بعيداً عن البيت. فهي شـديدة التعلّق به، منذ أن ولـد، وظلت الى جانبه مانحـةً إياه الكثير من الحنان والرأفة. كان باسـم شغلها الشـاغل. شقيقته وشقيقاه لم ينعموا بما نعم به من اهتمـام واعتنـاء. لكنهم ما كانوا ليغاروا منه، فهو شـقيقهم الأكبر

الذي لا يبصــر. وكانوا يتألمون له بالسرّ، بخاصّة عندما يدركون أنهم يســبقونه ويتفوّقون عليه فــي أمور كثيرة، ما عدا قدرته على الحفـظ وصــبره على الاســتماع الى مــا يُقرأ عليه مـن كتب وفي مقدّمها القرآن الكريم.

كانت الأم ترفض دوماً أن يغادر باسم البيت ويلتحق بالمعهد لظنها بأنّه سيصبح ابن المعهد وليس ابنها، وبأنّ حياته هناك ستحول دون عودتــه الى الأســرة. ولــم يتمكّن رئيس البلديــة من إقناعها يومــاً. لكنهــا ما لبثت أن وافقــت أخيراً، نزولاً عنــد رغبته وبعد إصــرار زوجها الذي كان يلمّ بسرّ علاقتها المتينة بابنها الضرير، ولم يكن ليجرح شعورها هذا. فالأم كانت تتألم في داخلها من غير أن تبــوح بهذا الألم أمام أبنائها. كانت تعتقد أن مرض ابنها الذي حلّ به عن طريق الوراثة إنّما هي سـببه. عندما ولد باسـم لم يعلم أحد أنّه فاقد للبصر. حتى الداية أمّ إبراهيم التي ولدته في البيت لم تنتبه الى فقدانه البصــر. كان طفلاً غضّاً ونضراً، مشرق الوجه، كامــل العافية. ولم تمضِ بضــعة أيــام حتى راح يندفــع نحو أمّه ليرضــع من ثديها. وكان، كلّما وضــعته أمه في سريره الصغير، ترتســم على شفتيه ابتسامة صــغيرة. بهرت هذه الابتسامة الأم ثمّ الأب، ثــمّ الدايــة عندما زارت العائلة بعد أيــام لتطمئنّ الى الوليد البكر. فليس من عادة الأطفال أن يبتســموا في أســبوعهم الأول. كانت تلك الابتسامة مفاجأة جميلة، وتوقّع الجميع أنّها طالع خير. وسرعان ما اتفق الجميع على أن يطلقوا على الوليد اسم «باسم». إنّه الطفل الذي ولد باسماً فكيف لا يكون اسمه «باسم». لم تلاحظ الأم أنّ عيني طفلها لا تبصــران، فجفونهما كانت ترفّ كما ترفّ الجفون عادة والعينان تتحرّكان يمنة ويســرة. لكنّ ما كان يحيّرها

هـو الماء القليل، الأبيض اللون الذي يرشـح مـن العينين ويتجمّع حـول المقلتيـن. ولم يكن عليها إلا أن تنظفـه كلّ يوم مثلما تنظف وجه الطفل وجسمه كلّه.

كانـت الدايـة تحلّ في الأسـر الفقيرة محـلّ الطبيب، فتتولى الاعتنـاء بالأطفال حتى يجتازوا الشـهر. وهكـذا كانت هي طبيبة «باسـم» الطفـل الرضـيع الـذي كان ينمو بسـرعة. ولـم يمضِ شـهران وكان برد الشـتاء بدأ يغزو الطبيعة، حتى أصـيب الطفل بـزكام وارتفعـت حرارتـه. ووجدت الأم نفسـها مضـطرة الى المضـيّ بالطفل الى طبيب للأطفال فـي القرية المجاورة لقريتهم. كانت نسـوة القرى يلجأن إليه كلّما أصـيب أطفالهم بوعكة أو حلّ بهـم مرضـ. عندما كشـف الطبيب على باسـم أدرك للفـور أنّه مصـاب بزكام شـديد وطمأن الأم والأب اللذين اصـطحباه إليه. لكنّ الطبيب فوجئ بعيني باسم وبالمادّة البيضاء المتجمّعة حولهما. حرّك أصـابعه فوق العينين فلاحظ أنّ العينين لم تستجيبا مع أنهما كانتا تتحركان ولكن من غير أن تنظرا. شـكّ الطبيب بالأمر لكنّه لـم يبح به الى الأم والأب. طلب منهما أن يقصـدا، فور تحسّـن صـحة الطفل، عيادة طب العيون في مدينة صيدا الجنوبية، وكتب تقريراً وسـلّمهما إياه كي يسـلّماه الى الطبيب الذي سيعاين الطفل. بعد ثلاثة أيام زال الزكام وانخفضـت حرارة الجسم واستعاد باسم ابتسـامته وحركاته واللعب والتغتغة. فلـم يكن من الأب والأم إلاّ أن حملاه الى العيادة في صـيدا بعدما حصـلا على موعد من أحد الأطباء هناك. في العيادة تسلّمت الممرضة الطفل من أمّه وأدخلته الـى الغرفة الداخلية وطلبت من أهله الانتظار حتى يخضـع الطفل

للفحوص المتعلّقة بالعيون. طال انتظار الأم والأب نحو نصف ساعة، فقلقت الأم كثيراً وراح زوجها يهدّئ من قلقها. ثمّ ما لبثت الممرضة أن خرجت بالصبي وقالت للأب إنّ الطبيب يريد أن يكلّمه على انفراد. ضمّت الأم وليدها الى صدرها وراحت تدلله وتمسّد رأسه. أما الأب فصدم عندما أخبره الطبيب أن باسم لا يبصر.

قال له الطبيب: إنني آسف لأن أطالعك بهذا الخبر الأليم. لقد ولد الطفل ضريراً. لكننا سنخضعه للمزيد من الفحوص لتحديد حالته والسبب الكامن وراءها. والأرجح أنه ضرير بالوراثة. هل في عائلتك أو عائلة زوجتك أشخاص مكفوفون؟

– أجابه الأب مرتجفاً: لا علم لي بالأمر. ما من أحد مكفوف في عائلتي على الأقل. ثم سرعان ما أضاف: أجل، جدّ زوجتي كان مكفوفاً.

– ستأتون بالطفل بعد أسبوع وسأرافقه الى المستشفى لنخضعه لفحوص دقيقة، قال الطبيب، ثم نهض وجلب من الخزانة قارورتين صغيرتين وقال للأب:

– هذا دواء سائل، تقطرون منه ثلاث مرات كلّ يوم في عيني الطفل. وبعد أسبوع تأتونني به. طفلك صحته جيدة لكنه للأسف لا يبصر. حاول أن تخبر زوجتك بهدوء، فهي ستُصدم حتماً وستكون صدمتها قوية. إنها أم وأنت أدرى.

خرج الأب مدلهمّ الوجه، حزيناً لكنّه سرعان ما كبح حزنه وراح يبتسم ويقبّل الطفل، لئلا يساور الشك زوجته. وخرجا.

في البيت باشرت الأم في قطْر الدواء السائل في عيني طفلها

وفي ظنها أنه سـيزيل هذا العمش الذي ما زال يحيط بالعينين. أما الأب فكان مضـطرباً وحزيناً وكان يخرج في الليل الى السـطيحة يبكي ويبكي كاتماً تنهّداته. كان حائراً، شديد الحيرة: كيف سيخبر زوجته بشأن الطفل؟ كيف سيواجهها بالحقيقة؟

قصد أبو باسم ليلاً، بعدما عاد مع زوجته والطفل من زيارة الطبيب، منزل شقيقه الأكبر عبّاس. كان بيت شقيقه قريباً من بيته ويفصـل بينهما أحد البسـاتين التي يملكانهـا ويزرعانها ويرتزقان منهـا. عندمـا دخـل البيـت فوجئ شـقيقه بـه، متجّهمـاً، مقطّب الحاجبين، حزيناً. سأله سريعاً:

- ما بك يا أخي؟

جلس منيف على الكنبة في الدار، وراح يشهق باكياً. دخلت زوجة شقيقه مرتبكة بعدما سمعت بكاءه.

- مـا الأمر يا أخي؟ سـأله شـقيقه مرّة ثانيـة، ثم نهض عن كرسيّه واقترب منه.

- مصيبة يا أخي. مصيبة. وواصل بكاءه.

- أي مصـيبة؟ قل لنا. كفّ عن البكاء وأخبرنا. ما هي هذه المصيبة؟

- باسم! يا أخي. باسم.

- ما به؟ هل وقع؟ هل هو مريض؟ زوجتي كانت عندكم قبل ساعتين وكان الصبيّ بخير.

- لم يعلم أحد سواي بالمصيبة يا أخي. حتى زوجتي لا تعلم.

- أخبرني. لم أعد قادراً على التحمّل.

- ضـرير. باسـم ضرير. ولد ضريراً، ضـريراً لا يبصر.

طفل لا يبصر، قال منيف، وراح يبكي ويتأوه، نادباً حظه وحظّ هذا الطفل.

حلّ الخبر على شقيقه عباس وزوجته حلول الصاعقة، فاضطربا، وأخذت الزوجة تبكي بدورها. كان الخبر قاسياً جداً وأليماً. فباسم هو البكر وأن يولد البكر كفيفاً، فهذا أمر لا يُصدّق. يا لهذا القدر. صمت الجميع وكأنهم في حال من الوجوم. حتى أبو باسم كان واجماً بعدما توقف عن البكاء. ولولا تأتأة الطفلة زينب التي كانت تلعب على السجادة، لكان الصمت مطبقاً.

بعد لحظات رفع منيف وجهه ومسح آخر دمعاته وقال بصوت متهدّج:

- جئت إليكم لنبحث عن طريقة نخبر فيها أم باسم بالأمر. إنني عاجز عن إخبارها وحدي. ويجب أن تعلم. وهي ستعلم عاجلاً أم آجلاً.

بقي عباس وزوجته صامتين، فالصدمة قويّة. والشقيقان يعيشان حياة شبه مشتركة. يعملان معاً ويقضيان الليل معاً وبيتاهما كأنهما بيت واحد. وعندما أنجب عباس وزوجته ابنتهما البكر زينب احتفلوا جميعاً بها. وكذلك عندما ولد باسم، عمّت الفرحة البيتين، فالطفل هو ابن العائلتين اللتين كانتا عائلة واحدة. فعبّاس ومنيف هما الوحيدان في الأسرة اللذان لم يغادرا القرية الى بيروت. أشقاؤهما الثلاثة الآخرون قرّروا العيش في المدينة بعدما سئموا مهنة الزراعة. وقد سافر صغيرهم من ثمّ الى أفريقيا، الى شاطئ العاج، ليعمل هناك مع أقارب زوجته.

بدت الحيرة شديدة على وجوه الثلاثة. قالت أم زينب إنها

لا تجـرؤ البتة على إخبار سـلفتها بالأمر. بل انها تعجز عن القيام بمثل هذا الفعل ولا تتحمل رؤية سـلفتها التي هي بمثابة أخت لها، تصـرخ وتنتحب ويُغمى عليها. حتى عباس قال إنّه لا يتحمل مثل هـذا الموقف. اتفق الثلاثة على أن يجـدوا طريقة ملائمة لإطلاع الأم على الحقيقة.

مضـت ثلاثة أيام ولم يتوصّـل الثلاثة الى حلّ. كانوا خائفين كثيـراً من الأثر الذي سـيتركه الخبر في بهيّـة للفور. فهي قد تقع أرضـاً ويُغمى عليها. وقد تنتابها حال من الصـراخ. لكنهم قرّروا أن يخبروها مهما حصـل. فالطفل يجب أن يخضـع للفحوص بعد ثلاثة أيام ولا بدّ للأم من أن تعلم.

عندمـا دخل عباس وزوجته منزل شـقيقه رحّبـت بهما بهيّة حاملة ابنها باسـم. جلسـا على الكنبة. نادت زوجها الذي كان في المطبـخ فجاء وجلس بالقرب منهمـا. تغامز الثلاثة مؤذنين لعبّاس أن يبدأ الكلام. تردّد عباس ثمّ راح يحدّث بهيّة التي جلسـت على كرسـي، تاركة باسـم في سريره الصـغير. أخبرها عباس الحقيقة بهدوء ورويّة، أخبرها بالأمر في شكل متقطع، لئلا تكون الصدمة كبيـرة. قـال لها إن الطبيب عندما اختلـى بزوجها أعلمه بأنّ نظر الصـبيّ ضـعيف، ويجب أن يعالج. عندما سمعت بهية هذا الكلام نهضـت عن الكرسي مضطربة وكأنّ حدسها الأمومي جعلها تشعر بأنّ الأمر أشـدّ هولاً. تذكّـرت للفور كيف اختلى زوجها بالطبيب لكنها لم تولِ هذه الخلوة اهتماماً.

اقتربت من عباس: أخبرني؟ ما قصّة هذا الضعف في النظر؟ هـل تقـول الحقيقـة أم أنك تخفي علـيّ ما هو أسـوأ؟ راحت تبكي بغزارة. نهض زوجها وضـمّها بين ذراعيه وراح يبكي بدوره. بكت أيضـاً أم زينب، لم تسـتطع أن تكبـت دموعها. حتى عباس بكى. قال لها زوجها: باسم لا يبصر يا بهيّة. باسم طفلنا لا يبصر. وتهدّج صوته وارتفع بكاؤه. لم تصدّق الأم ما قالوا لها. صرخت بأعلى صـوتها وشـرعت تولول وتندب... ثـم انهارت ووقعت على الكنبة. جاءت سلفتها بقنينة ماء الزهر ودلقت منها على وجهها فاسـتفاقت ثم ما لبثت أن أغمـي عليها. ولم يكن على أم زينب إلا

ان تدلق المزيد من ماء الزهر وتمسّد رأسها وجبينها حتى استفاقت مذهولة، ملتاعة وراحت تبكي بصوت خفيض. مدّدتها على الكنبة وجلست بالقرب منها، بينما جلس زوجها وشقيقه على الكنبة المقابلة. صمت الجميع ما عدا بهية. كانت تبكي وتتنهّد. تنظر الى طفلها وتبكي.

لم تغادر أم زينب بيت بهية. ظلّت طول الليل ساهرة قربها. أما بهية فأمضت الليل تبكي، ولم تغفُ إلا عند الفجر بعدما أخذ منها التعب كلّ مأخذ. وعندما استيقظت في الصباح، نظرت من حولها، فرأت ابنها يلهو في سريره. حاولت النهوض فلم تستطع، ساعدتها سلفتها وساندتها لتدخل المرحاض. عندما عادت وجلست على الكنبة أخذتها نوبة من البكاء. راحت تبكي، قائلة بصوت مجروح: لماذا ابني؟ باسم. لماذا باسم؟ ليتني فقدت البصر أنا لا هو. جلس زوجها قربها وراح يخفف من ألمها مردداً: إنها مشيئة الله. إنها مشيئة الله.

حلّ على بهية وهن شديد فظلّت نائمة أياماً، تخدمها سلفتها التي لم تتركها البتة. كانت تبكي، تضمّ ابنها الى صدرها وتبكي. أصبح البكاء رفيقها الدائم، في النهار كما في الليل. بكت بهية كثيراً، مع أنها كانت تعلم جيداً أنّ البكاء لن يجدي ولن يعيد النظر الى عيني طفلها.

لم يمضِ شهر على هذه الصدمة حتى نهضت الأم بهية من كبوتها. فذات صباح استيقظت مفعمة بالعزم، صلّت وقرّرت أن تطوي هذه الصفحة الأليمة من حياتها وتفتح صفحة بيضاء. وقالت في نفسها، بدءاً من اليوم لن أعدّ ابني باسم ضريراً. سأكون أنا في

خدمته ليتجاوز الصـعوبات الجمّة التي تعترضـه. حمدت بهية الله على القوّة التي منحها إياها في ذاك الصباح وشـعرت أنها تنطلق الى الحياة من جديد. وكان أملها أن تنجب أطفالاً يكونون أشقاء أو شقيقات لابنها باسم. شعرت بهية في ذاك الصباح بطمأنينة تسكنها فنهضت الى تدبير شؤون البيت متناسية حزنها، ومتّكلة على مشيئة الله.

كان باسـم جالسـاً على الكنبة التي طالما اعتاد الجلوس عليها وحيداً، لا سـيما عندما كان يذهب شـقيقاه أحمد وسـهيل وشـقيقته زهـرة الى مدرسـة القرية. كان متعباً بعضـ التعب جرّاء الأرق الذي حلّ به طوال الليلة الفائتة. لم ينم جيداً في تلك الليلة الأخيرة له في منزله، كما كان يقول في نفسـه، فاليوم سيبدأ حياة جديدة، بـل حيـاة أخرى، لا يعلم عنها سـوى القليل. دمعـت عيناه، لكنّه قـرّر ألا يبكـي خصوصـاً أمـام أمّه لئـلا يزيد مـن حزنها. هبت نسـمة خريفية ناعمة ولمسـت وجهه. قال في نفسه: كيف سأفارق هذا النسـيم، نسـيم قريتنا؟ كيف سـأفارق روائح الأزهار العطرة والأشـجار والعشب؟ كيف سـأغادر جلسات السمر على هذه الكنبة والسـماء ندية والهواء عليل؟ ثم الحقول كيف سـأتركها، هي التي فتحت ذراعيها لي منذ الصـغر، أتنزّه فيها مع رفاقي؟ والنهر لمن أدع الجلوس على ضفته والاستماع الى خرير مائه؟

كلّ هذه الأمور فكّر باسم فيها طوال الليل. لم يكن قادراً على تصـوّر حياته خـارج القرية ومناظرها التي كان يعيشـها بقلبه كما بسائر حواسه، من غير أن يبصرها بعينيه. هل يشبه صباح المدينة صـباح قريته المشـبع بالندى والعطر؟ هل يشبه ليلها ليل السطيحة

التي يضيئها القمر في الصيف؟ كان باسم يحبّ القمر ولو لم يبصره يوماً. كان يطلب من أهله ورفاقه أن يحدّثوه عنه وعن لونه الفضي وأشكاله المتعدّدة. كان يتخيل القمر هلالاً كما كانوا يصفونه له أحياناً. وعندما خسف القمر مرّة شعر بحزن خفيف وظل يسأل أمه: متى سيطلع القمر؟ لم يكن يستوعب جيداً ماذا يعني أن يُخسف القمر وكيف. أمه لم تتمكّن من أن تشرح له الأمر.

عندما صاح الديك نهض والده، فتش عنه في الفراش ليتوضأ معه ويؤديا صلاة الفجر، وإذ لم يجده خرج الى السطيحة، فرآه ينهض عن الكنبة. أديا الصلاة وجلسا في الخارج، أبوه يشرب القهوة التي حضّرها بنفسه، لئلا يوقظ زوجته المتعبة. فهي أيضاً لم تنم جيداً وقد لحظها تتقلّب في الليل داخل الفراش. هذه الليلة التي عبرت كانت قاسية على الأب والأم كما على باسم. والنهار سيكون أشدّ قسوة لأنه سيكون يوم الوداع.

لم تمضِ دقائق حتى نهضت الأم الى الصلاة. لم يكن الضوء قد حلّ كاملاً فخيوط الظلام ما زالت تنتشر في البيت. حضّرت الأم الإفطار ووضعته على الطاولة في الخارج وجلس الثلاثة يأكلون. لم تستطع الأم أن تزدرد لقمة واحدة. كانت تشعر بغصّة في الحلق. وكذلك الأب لم يفطر كعادته قبل أن يذهب الى البساتين. هذا النهار لن يعمل. سينتظر قدوم رئيس البلدية بسيارته ظهراً ليصطحب باسم الى المعهد. جلس الثلاثة شبه صامتين. تُرى عمّ يتحدّثون؟ باسم سيغادر المنزل تاركاً الكثير من الفراغ في حياة الأسرة ثم في حياة أمه. كانت فكرة المغادرة قاسية جداً. لم تستوعبها الأم ولا الأب ولا الشقيقان ولا الشقيقة. هذا الفتى

الذي أمضى بينهم نحو ثلاثة عشر عاماً وكان شغلهم الشاغل، هل يمكـن أن يغادرهم بين ليلة وضــحاها؟ هل تســتطيع الأم أن تهيّئ نفسها لفراق ابنها الضرير الذي كان نجمة قلبها؟ وكيف تستعدّ لهذا الفراق؟

كانت بهية تفكر بالسرّ: مَن سيهتمّ بابني؟ مَن سيحضّر طعامه؟ مَــن سيغســل ثيابه؟ لم تكن تملك فكرة واضــحة عــن المعهد الذي يعيش فيه الطلاب المكفوفون. كانت تخشـــى أن يصبح ابنها وحيداً هناك، لا يحنو عليه أحد، هو الفتى الصغير. كانت تخاف ألاّ يجد أحداً يكلّمه، هو الذي يؤثر الانطواء على نفسه.

قــال لهــا الأب قبل يوميــن: لا تخافي يا امرأتــي. الحياة في المعهد أفضــل من هنا. سيتعلم باسم، وهذا حلمه وحلمنا. يجب أن نقسّــي قلوبنا من أجله. تعلمين كم أنّه يحب الإصــغاء الى القراءة. كم أنه يحبّ الكتب والاســتماع الى القصص. يجب أن نتخلّى عن عاطفتنا كي يتمكّن من تكوين شخصيته. المعهد سيكون بمثابة البيت الثاني له. عندما ذهبت مع رئيس البلدية لتسجيله جالت بنا المديرة على أقســام المعهد. لا يمكنك أن تتصــوّري كيــف يعيش التلامذة المكفوفون هناك. إنهم من كلّ الأعمار. هناك تلامذة صــغار في السادســة من عمرهم. تصــوّري. هناك ملاعب وحدائق وغرف للقراءة وآلات حديثة. هناك عيادة طبية... ســيعيش باسم في هذا المعهد حياة جماعية، مع رفاقه. وسيحصــل على شهادة وسيعمل. وســيحقق أمنيته بقراءة القصــص والكتب، هو الذي يهواها. ولن يمنّنه أحد بجميل. فهو ســيقرأ وحده ولن يحتاج الى أحد ليقرأ له. كان الأب يقصد تلك الكتب البيضاء الكبيرة التي تحمل نقاطاً نافرة

والتي أطلعته المديرة عليها شارحة له كيف أن المكفوفين يقرأونها بأصابعهم. لم يستوعب الأب فكرة القراءة بالأصابع ولا طبيعة هذه الكتب البيضاء والنقاط النافرة فيها، لكنّه تظاهر بالفهم متصنّعاً الدهشة. لكنّ الأمر الوحيد الذي آلمه هو العتاب الذي فاجأته به المديرة وهي تجول معه على أرجاء المعهد. قالت له: لقد تأخرت بالاتيان بابنك الى المعهد. الفتيان المكفوفون الذين في عمره قطعوا شوطاً كبيراً في الدراسة والعمل الحرفي والرياضة... ليتك أتيت به قبل أعوام، لكان ربح الكثير من الوقت. فالآن سيكون رفاق صفه أصغر منه. ولكن لا يهمّ. الجميع هنا أصدقاء والمعهد عائلة واحدة.

قال الأب لزوجته أيضاً: لا تنسي إنّ إقامته هناك ودروسه لن تكلّفنا سوى القليل. فالمعهد مجاني وتدعمه مؤسسات كثيرة. نحن نشتري له الثياب ونؤمن له قليلاً من المال ليشعر أنّ بإمكانه أن يشتري ما يحلو له من دكان المعهد.

نهض الأب عن الكرسيّ، ابتسم رغماً عنه وقال لباسم: ستكون رجلاً يا بنيّ مثلما علّمتك دوماً. أنت في الثالثة عشرة من عمرك لكنك أشد نضجاً من فتيان الحيّ. أنت شاب وتستطيع أن تتحمّل المسؤولية. ستصبح بدءاً من اليوم مسؤولاً عن نفسك. في المعهد ستتعلم وتصبح صاحب مهنة، أياً كانت. والمهنة أنت ستختارها. هناك ستقرأ كثيراً يا بنيّ. سيعلّمونك طريقة تقرأ فيها وحدك وستتمكّن أيضاً من الكتابة، كما قالت لي المديرة. والقصص التي تؤلفها في ذهنك وتسردها لأخوتك ورفاقك هنا قد تتمكّن يوماً من أن تكتبها.

لم يخفّف كلام الأب إلا القليل من حزن باسم. لكنه كتم هذا الحزن وتظاهر بأنّه قبل الفكرة. هذا الحزن، حزن الفراق عاشه مرّة قبل عام عندما غادرت أسرة عمّه الى بيروت لتقيم هناك. لم يكن فراق الأسرة هو الذي أحزنه فحسب بل فراق ابنة عمّه زينب التي تكبره بعشرة أشهر. حزن كثيراً حينذاك وبكى. ظل يبكي أسبوعاً ولكن بالخفية عن أهله. كانت زينب أعزّ صديقة له. كانت أكثر من ابنة عمّ. كانت تهتمّ به مثل أمه. تحبّه من غير أن تُشعره بالشفقة. كانت الأشدّ تهذيباً بين أبناء الأسرة الكبيرة، بين أشقائه وأبناء عمّه. شقيقته زهرة كانت صغيرة ولم يكن يعتمد عليها في أمر. بل كان هو الذي يدلّلها ويهتمّ بها وسع قدرته. أما زينب فكانت رفيقته، تقرأ له وتطلعه على بعض الدروس التي كانت تتابعها في المدرسة، كالجغرافيا والتاريخ والقواعد العربية. كان باسم متعلّقاً بابنة عمّه وكأنها أخته. كانت هي عينيه اللتين يبصر بهما. وهو لا ينسى البتة ما قرأت له من قصص كانت تجلبها من مكتبة مدرستها. ولولاها لما استطاع باسم أن يلمّ باللغة العربية. طبعاً أمه كانت تقرأ له سابقاً ما توافر لها من كتب للأطفال، وكان يصغي بهدوء اليها وهي تقرأ له سوراً من القرآن الكريم. وكان يطلب منها أن تعيد القراءة مرّة تلو مرّة كي يتمكّن من حفظ الآيات وفهمها بحسب ما وهبه الله من نعمة الفهم.

تذكر باسم كيف حزن لفراق ابنة عمّه، هذه الفتاة التي كان يعزّها مثل شقيقته الصغيرة والتي تركت فراغاً كبيراً في حياته. وهو لا يزال حتى الآن يفكّر بها كلّ يوم، مشتاقاً إليها والى صوتها يقرأ له بلا ملل. وكانت عائلة عمّه تترك المدينة في الصيف

وتقضيه في ربوع القرية الجنوبية، ثم تعود في آخره الى بيروت.

كان حزن باسم اليوم أشدّ وطأة من أحزانه السابقة. إنه هو الذي سيغادر البيت والقرية التي نشأ فيها، سيغادر الطبيعة التي صادقها وأصبحت جزءاً من حياته، بصيفها وشتائها، بروائح الأشجار العطرة ودفء الشمس وبرودة الظلال، بنسائمها اللطيفة وعواصفها وأمطارها في الشتاء. كان يصعب عليه تصوّر نفسه يعيش في عالم آخر. هو ابن الطبيعة، ابن البساتين والحقول التي كان يقضي فيها ساعات طوالاً، مع أبيه أو عمّه أو مع شقيقيه وأبناء عمّه. كان يجوب تلك الحقول، مستعيناً بعصاه الخشبية وأصوات رفاقه، عندما يتعب يجلس في ظل شجرة، وعندما يجوع يرفع يده نحو الأغصان المثمرة ليقطف ما يسدّ رمقه من فاكهة الموسم. كانت الطبيعة أشبه بالأم التي تفتح له ذراعيها فيرتمي بينهما بفرح وحبور.

كانت الأم قد وضّبت حقيبة ابنها التي ابتاعها الأب من بيروت عند عودته من المعهد، ووضعت فيها الثياب الجديدة التي اشترتها له من محلّ الثياب في القرية، والحذاء الجديد أيضاً وكلّ ما يلزمه من ملابس وأدوات صغيرة. عندما أغلقت الأم الحقيبة دمعت عيناها، لكنها لم تستطع إلا أن تتذكر حقيبة عرسها التي ساعدتها أمها وشقيقاتها في توضيبها. وتحسّرت قائلة في نفسها: هل سأوضب يوماً حقيبة عرس لابني باسم؟ هذه حقيبة الفراق. كيف سأعيش من دونه؟

لم تكد الظهيرة تحين حتّى وصل رئيس البلدية بسيارته. أوقفها أمام البيت ونزل منها منادياً قريبه منيف. أصرّت الأم على رئيس

البلديـة أن ينتظر حتى تعدّ له شـراب التـوت. فأذعن لها. وجلس الجميع على السـطيحة التي كانت تغصّ بالأسرة الكبيرة كلّها: العمّ عباس وزوجته وزينب وسائر الأبناء، علاوة على الجيران الذين جاؤوا ليودّعوا هذا الفتى الذي يكنون له كلّ المحبّة. وما إن نهض رئيس البلدية حتـى اندفع الجميع نحو باسـم، يقبّلونه دامعين، ما عدا الأم التي راحت تبكي وتشـهق وتبعتها زينب التي لم تسـتطع منع نفسـها من البكاء. غصّ باسـم وحزن كثيـراً لكنه ظلّ مكابراً ولم يبك، فهو يعلم أنّه سيبكي هناك كثيراً، كما بكى هنا في الليالي التي مضت.

وقف الجميع على المصـطبة الكبيرة وراحوا يلوّحون بأيديهم لباسم الذي انطلقت به السيارة، وكأنهم على مرفأ يودّعون مهاجراً، كما كان يحصل في الماضي. كان الأب أصرّ على أن يرافق ابنه الـى المعهد، لكنّ رئيس البلدية أقنعه بعدم الذهاب معهما، متذرعاً أنّ لديه أشغالاً في بيروت، يجب أن ينصرف لها.

عندما شرعت السيارة تجتاز الطريق، راح باسم يتلفّت شمالاً ويميناً وكأنّه يودّع القرية وحقولها وجبالها، متلقياً النسمات الباردة التي تلفح وجهه مؤذنة بقدوم فصـل الخريف. ولم تمضِ سـاعتان أو أقل، حتى وصلت السيارة الى المعهد. فالقرية تبعد عن بيروت مسـافة غير قصـيرة هي مسـافة الانتقال من الجنوب اللبناني الى العاصـمة. وقد اجتاز باسم هذه المسافة مرّات عدّة قاصداً الطبيب ليفحص عينيه بعدما انتقل هذا الطبيب من مدينة صيدا الى بيروت.

نـزل رئيس البلدية من السـيارة وسـاعد باسـم على النزول وصـعود الدرجات القليلة التي تفصـل بين الباحة الخارجية والبهو

الكبيـر الذي تحتل المديـرة أحد المكاتب فيه. رحّبت المديرة وداد بالزائريـن وطلبـت لهما كوبين من العصـير وراحت تحدّثهما عن المعهـد. بدا باسـم خجولاً فـي كلامه القليل، وآثر أن يسـتمع الى رئيسـ البلدية والمديرة يتحدّثان عن المعهد والرسـالة التي يؤدّيها للمكفوفين، وعن الدروس التي تعطى فيه وسـائر النشاطات. كان باسم يبتسم حيناً تلو آخر، منقلاً وجهه بين المديرة ورئيس البلدية، معتمداً على سمعه القوي وانتباهه الحذق. ودّع رئيس البلدية باسم وقبّله وشـدّ من عزيمته قائلاً له: غداً ستصبح شاباً متعلّماً وصاحب مهنة وسـنحتاج نحـن إليك في القريـة. ثم نادت المديرة مسـاعد التلامذة وهو يُدعى يوسف ليرافق باسم الى الخزانة المخصصة له ويسـاعده في حمل الحقيبة ويدلّه الى السـرير المجاور للخزانة في صالة النوم، ويعرّفه الى الغرَف والأقسام، ويشرح له كيف عليه أن يتنقّـل وأين يقع الحمام وصـالة الطعام والصـالون الذي يلتقي فيه التلامذة سواء بعضهم مع بعض أو مع أهلهم وأصدقائهم الذين يزورونهم.

أدرك باسـم للفور، عندما دخل الصـالة الكبيرة مع يوسـف ليضـع ثيابه وأغراضـه في الخزانة المجاورة لسريره، أن الصالة هـذه هي غرفة نوم كبيرة وتضـم أسـرّة كثيـرة وخزائن. وفطن إلى أنها مقسّـمة الى زوايا وكل زاوية شـبه مستقلّة عن الأخرى. وكان علـى صـواب. فهذه الغرفـة الكبيرة التي يسـمّيها مرافقه بـ «الدورتوار»، وهو لم يسـتفهم عن هذه الكلمة إلا لاحقاً ليعلم أنها تعني غرفة النوم، هذه الغرفة تتسـع لنحو خمسـة وعشرين تلميذاً كما قال له يوسف، وفي المعهد ثلاث غرف للنوم تماثلها يتقاسمها

التلامــذة بحســب أعمارهم. وفي الجهة المقابلــة لمبنى الفتيان يقام مبنى الفتيات، والمبنيان يفصل بينهما سياج من خشب طلي باللون الأخضــر ويحتل وســط الســياج باب مشــترك. فالفتيان والفتيات يتابعون جميعاً الدروس نفســها وفي الصــفوف نفسها. لكنّ للفتيات عالمهــنّ وللفتيان عالمهم. ظل يوســف يتحدّث الى باســم وباســم ينصــت إليه باهتمام. وبعدما انتهيا من توضــيب الثياب وســجادة الصــلاة والأشــياء الأخــرى في الخزانة وكانت الســاعة شــارفت الخامســة، قال له يوســف إنه سيجول به جولة صغيرة على الباحة الخارجية والحديقة والملاعب وبركة الســباحة وســواها. أمضــى باسم في رفقة يوسف نحو ساعة ثم طلب منه أن يقوده الى الحديقة. وعندما وصلا إليها أرشده الى أحد المقاعد وقال له إن أمامه نصف ســاعة ليجلس ويتنعّم بالنسيم العليل الذي كان يتهادى بين الأشجار والمزروعات. ووعده بأنه سيعود ليدلّه الى صالة الطعام فيتناول عشاءه ثمّ الى غرفة الجلوس، يرتاح قليلاً قبل أن يذهب للنوم على سريره. وقال له: غداً تبدأ التمارين على العيش في المعهد.

كان الليل طويلاً ولم يستطع باسم أن يغفو بسهولة. ظلّ يتقلّب في الســرير، يخالجه شــعور بالغربة. منذ أن وطأت قدماه أرض المعهد شعر فعلاً أنه غريب هنا ووحيد. بكى باسم في الليل بصمت لئلا يسمعه أحد من رفاقه الجدد الذين يقاسمونه هذه الغرفة الكبيرة. حتــى رائحة الغرفــة كانت غريبة عنــه، ورائحة الشراشــف... رائحة أدرك لاحقاً أنها رائحة الأدوية المطهرة التي تستخدم كثيراً في المعهد. حتى الهواء كان غريباً عنه. والأصــوات كذلك. إنها المرّة الأولى ينام فيها خارج البيت وفي سرير ليس سريره. ظلّ

باسم يتقلب حتى غلبه التعب فنام.

في الصباح استيقظ على رنين جرس علم أنّه جرس كهربائي. سمع أصوات الفتيان الذين ينامون في الغرفة، كانوا قلّة بحسب ما تصوّر. ثم دخل يوسف وراح يحدّثهم. واقترب من باسم وقال له سأرافقك الى الحمام كي تعلم كيف تصل إليه وحدك، وكيف تغتسل. أنت الآن جديد هنا وستتعرف خطوة تلو أخرى الى كلّ الأماكن فتصبح من ثمّ حراً مثل رفاقك الذين يجيدون المشي وحدهم والتصرف بملء إرادتهم. لا تخشَ أمراً، سأظل بالقرب منك حتى تصبح سيّد نفسك.

عندما جلس الجميع الى مائدة الفطور عرّف يوسف التلامذة برفيقهم الجديد باسم، فرحبوا به أيّما ترحاب. لم يعلم باسم كم تلميذاً كانوا بالتحديد وراح يحرّك وجهه وكأنّه يعدّهم. لاحظ يوسف حيرة باسم فقال له للفور: لم يكتمل عدد التلامذة. الآن هم عشرة، والآخرون سيصلون خلال يومين، عائدين من عطلتهم الصيفية. كان الفطور جيداً، حليب وبيض وجبن، إضافة الى الخبز الطازج. وما إن انتهى باسم من فطوره حتى اقترب منه يوسف قائلاً له: بعد ساعة سيكون لك موعد مع طبيب المعهد. وقاده الى غرفة الجلوس، التي يقصدها التلامذة، للتحادث والاستراحة وقضاء الوقت معاً.

فحص الطبيب باسم جيداً. مدّده على السرير الصغير وجسّ بيديه أماكن عدّة في جسمه، ووضع السماعة على صدره ثم على ظهره. ربّت على كتفيه قائلاً: الصحة جيدة، الحمدلله. ثم أجلسه على كرسيّ وشرع يفحص عينيه. ثم قال له: يجب أن تواصل

قطــر الدواء نفســه في عينيك، صــباحاً ومســاء. باســم أنت قويّ وستكون هنا في بيتك.

كان اليوم الأول في المعهد عادياً وقد أمضاه باسم في رفقة يوسف الذي تولّى إرشاده في كيفية التحرّك والتنقل في أرجاء المعهد، بين الغرف وفي المماشي، وراح يخضعه لبعض التمارين التي تساعده على حفظ «الخطوط» - بحسب تعبير يوسف - التي عليه أن يسلكها لتصبح لديه قدرة على التحرّك بحرية. لم يواجه باسم صعوبة في حفظ تلك «الخطوط» مستعيناً بعصاه الخشبية التي جلبها معه. واستطاع طوال فترة بعض الظهر أن يسلك هذه «الخطوط» وحده وخلفه كان يمشي يوسف.

عندما تعب باسم، أتاه يوسف بكوب عصير وقال له: بدءاً من غد ستكون لديك عصا بيضاء. وفسّر له ماذا تعني هذه العصا البيضاء الخاصّة بالمكفوفين. ثمّ ذهبا معاً الى غرفة الجلوس. في هذه الغرفة كان يستمع الى التلامذة يتحدّثون ويسردون أخبارهم، كلّ بدوره. يضحكون ويمرحون. لم يتكلم باسم إلا قليلاً. أخبرهم أنّه وصل البارحة الى المعهد، تاركاً قريته الجنوبية والأسرة وعالم الريف. شعر أحد التلامذة أن صوت باسم محفوف ببحة حزينة، فقال له:

- لا تحزن يا صديقي. ستكتشف بعد أيام كم الحياة جميلة هنا، كم هي سهلة وغنية. كلنا شعرنا بهذا الحزن سابقاً. لكنّ المعهد ما لبث أن أصبح بيتنا الغالي ومدرستنا وحياتنا. ستكتشف هنا يا رفيقي أن فقداننا للبصر ليس عاهة وأننا قادرون أن نعطي

أكثر من الكثيرين من المبصرين. اسمي جورج وأنا في خدمتك. نادني فقط فأكون قربك.

أدمعت عينا باسم رغماً عنه. لكنّه عندما مسح دموعه بالمنديل الذي صنعته له أمه، شعر أنّ عليه أن يتخطّى هذا الحزن وأن يمضي في حياته الجديدة، متكلاً على نعمة الله.

قرّر باسم أن يطوي صفحة الحزن ويفتح صفحة جديدة، بيضاء ومشرقة. فهو طالما صلّى طالباً من الله أن ينهض به من حياة الألم والحزن التي يعيشها.

شعر باسم في جلسته مع رفاق المعهد بقدْر من الأمل وربما من الفرح. إنّه الآن محاط برفاق مثله، يفهمونه ويفهمهم، يعانون مثلما يعاني، ويعيشون كما يعيش. كان يحسّ أن بعضهم يكبره بضع سنوات، وأن بعضهم الآخر أصغر منه. لكنه لم يبالِ بهذا الأمر. الرفاق رفاق ولو اختلفت أعمارهم قليلاً. إنه الآن في عالم يتساوى فيه الجميع ولا أحد يتفوّق على أحد إلا بذكائه وعلمه وقدرته على الاستيعاب والعطاء. أصغى باسم الى الرفاق الجدد يتحدّثون عن أمور يجهلها، عن الدروس التي يتابعونها والكتب التي يقرأونها على «البرايل» والفروض التي ينجزونها والرحلات التي يقومون بها والرياضة التي يمارسونها... أما أكثر ما جذبه فهو الكتب التي يقرأونها. لم يفهم باسم أي كتب يعنون وكيف يقدرون على قراءتها وهم لا يبصرون. لكنه خجل من أن يسألهم عنها، مع أنّ هذه الكتب التي يجهلها أثارت فضوله وحماسته. فهو طالما استمع الى ابنة عمّه زينب تقرأ له القصص والروايات التي كانت تأتي بها من مكتبة مدرستها. وفي أحيان كان شقيقاه وشقيقته وأبناء

عمّه الأصغر سناً منه يقرأون له القليل ممّا في كتبهم وسرعان ما كانوا يملّون فيخرجون الى اللعب. زينب وحدها كانت تقرأ له بلا منّة ولا ملل. وكانت تناقش معه تلك القصص والروايات المكتوبة للأطفال وتستمع إليه يتكلم عن أبطالها بحماسة وشغف. لو لم يكن باسم مكفوفاً لكان الآن في صف زينب، ولكان تلميذاً مجتهداً مثلها. وقد طلب إليها منذ سنوات أن تدرس في دارتهم وهو جالس بالقرب منها، يصغي الى دروسها ويحفظ بعضاً منها. ولم تكن تهمّه إلا الدروس العربية، كالجغرافيا والتاريخ والقواعد العربية والقراءة... كان يحبّ كثيراً القراءة والقواعد العربية، وكان في أحيان يساعد زينب على تركيب الجمل وكتابة فروض الإنشاء. واستطاع أن يرافقها في هذه الدروس سنة تلو سنة حتى أصبح ملماً بها غيباً.

تذكّر باسم تلك الأيام وهو جالس في الغرفة مع رفاقه الذين بالكاد تعرّف اليهم. عرّف كلّ واحد منهم باسمه: محمد، زياد، الياس، قاسم، طوني، فادي...

بعد العشاء رافق يوسف باسم الى غرفة النوم وقال له: غداً ستمثل أمام لجنة «التقييم» وسيطرح عليك أعضاؤها الثلاثة الاسئلة ويجرون لك امتحاناً شفوياً صغيراً ليقرّروا بأي صف يجب أن تلتحق. الأعضاء الثلاثة هؤلاء لطفاء جداً وعليك أن تجيب على أسئلتهم من دون خوف أو تعثر.

عندما وضع باسم رأسه على المخدّة انهالت عليه الذكريات، هذه التي لن تفارقه بتاتاً. راح يستعيد في ذاكرته تلك السنوات الأربع أو الخمس التي التحق فيها بمدرسة القرية كتلميذ مستمع فقط

ولا يشــارك في الامتحانات. حينذاك كان في العاشــرة من عمره وقد ألح مدير المدرســة على والديه أن يلحقاه بالمدرسة الرسمية، فيقضــي فيها فتــرة قبل الظهــر، يســتمع الى الدروس ويصــادق رفاقه في الصــف، فيكســر عزلة البيت ويتعلم قدر ما يستطيع من الدروس. وافق الوالدان على دخول باسـم المدرســة التي لم تكن بعيدة عن البيت، مع أنهما كانا يخشيان أن يشعر بأنّه مهمل أو بأنّه تلميذ فضــولي، متأخر عــن رفاقه. لكنّ الفتــى تحمّس للفكرة ولم يخشَ أمــراً، فهو كان يحتاج فعلاً الى رفــاق يعيش مثلهم ويلعب معهم ويستمع اليهم.

تذكّــر باســم وهــو يتقلّب فــي فراشــه، كيف اشــترت أمه له «شــنطة» صــغيرة يعلّقها على كتفه وكانت تضــع فيها قنينة ماء و «سندويشــاً» وفاكهة. لم يكن لديه كتب ولا دفاتر ولا أقلام. فهو لن يحتاجها ما دام تلميذاً مستمعاً.

فــرح بــه تلامذة الصــفّ وراحــوا يهتمّــون به ويســاعدونه علــى التحرّك بين الصــفوف والملعب، حتى حفــظ الخطوات كلّها وبات يتنقل وحيداً في المدرســة. كان باســم يســتمع الى المعلّمين والمعلّمــات يشــرحون الدروس للتلامــذة ويتابعــون معهم قراءة صفحات من الكتب التي بين أيديهم. أُلحق باسم بأحد الصفوف من دون مراعاة جهله للموادّ التي تُدرَّس فيها. كان الهدف أن يجلس في الصــف ويقضــي الوقت مستمعاً الى الدروس. أحب باسم مادّة الجغرافيــا والتاريخ والقراءة العربية. واهتم كثيراً بالاصــغاء الى دروســ القواعد التي راح يتابعها بدقّة. فهــذه القواعد تعلّمه كيف يركّــب الجمل في ذهنه من دون أن يرتكــب أخطاء في اللفظ. لم

يهوَ دروس الفرنسية ولا الحساب، فهو لم يكن قادرا على مواكبة رفاقــه في حل المسائل الحسابية، فلا قلم معه ولا أوراق. لكنّه لم يكـن يخرج مــن الصف حتى وإن شعر بالضجــر. ينتظر الجرس عندمــا يُقرع فيخــرج مع رفاقه الــى الملعب. وهنــاك يلهو معهم ويتحدّث ويناقشهم في دروس اللغة العربية.

تذكّــر باســم أيضاً كيــف كان يحــزن بالسرّ في نهايــة السنة المدرسيــة، ليــس فقط لأنه سيعــود الى المنزل، بــل لأنه لم يكن يحصــل على دفتــر علامات مثل كل رفاقه ولا علــى التهاني التي كان يغدقهــا الأساتذة والمديرة على التلامذة المتفوّقين. كان يشعر بغصّــة في الحلق ومــن عينيه كانت تكرج بضــع دمعات. لكنّ ما كان يفاجئــه دوماً أن بضعة التلامــذة الراسبين كانوا يتلقون الكثير مــن العتب من الأساتذة ثم من أهلهــم الذين ما كانوا يتمالكون عن التذمر والتأنيب.

كان باســم يرتقــي مع رفاقــه الى الصف الجديــد، من دون امتحان ولا فروض. هم يدرسون وينجزون فروضهم ويخضعون للامتحانات وهو ينجح مع الناجحين ولا يرسب مع الراسبين. هذه الفكــرة كانت تضحكه في أحيان لا سيّما عندما يبوح بها الى رفاقه فيضحكــون معــه، بــودّ ولطف. بــل إن التلامــذة الراسبين كانوا يحسدونه على هذا النجاح والارتقاء من صف الى صف، بلا جهد ولا كــدّ. لكنّ باسم كان على خلاف مــا يظن الجميع. كان يحفظ الكثيــر مما يسمعه في ذاكرته، لا سيّما في دروس العربية. وكان يخجــل كثيراً مــن الاعتراف بذلك. إلا أنّــه ذات مرّة، قبل عام، استطــاع وحــده أن يجيب عن ســؤال طرحه أستــاذ اللغة العربية

على التلامذة وكان حول «المبتدأ والخبر»، فيما عجز الجميع عن الإجابـة عليـه. وتشجّع باسم في تلك اللحظة وشـرح أمام الأستاذ مسألـة تقدّم الخبر وتأخر المبتـدأ مستعيناً بالأمثلة التي كان الأستاذ يعتمدها، ومنها «أين الطريق؟» أو: «أمامك المدرسة». وقد حفظ باسم هذين المثلين جيداً.

ظـلّ باسم يتذكّر، متقلّباً في فراشه. وراح يفكّر في الانطباع الـذي سيتركه غداً في أعضاء اللجنة الفاحصة. هل سيضعونني في صف الصغار؟ هل سيأخذون عمري في اعتبارهم فيلحقوني بصف الذيـن يجايلونني؟ سأل باسـم نفسه، وقد اعترته الحيرة التي طالما عرفها. كان قلقاً بعض القلق، فغداً يُقرِّر مصيره. وهو يدرك أنّه لا يجيـد من الدروس التي تابعها في مدرسة القريـة إلا العربية. كلّ المواد الأخرى نسيها ولم يبق منها في ذاكرته إلا القليل. لكنّه يفتخـر بأنه كان أكثر اجتهاداً في القواعد والإنشاء من معظم رفاق صفّـه. كان يحفـظ بسرعة ولا ينسى ما حفظـه. وكم تمنّى لو أن المديـر سمح له بأن يشارك فـي امتحان اللغة العربية ليبرهن أمام الجميـع أنّه ملمّ بهـا تمام الإلمام. لكـنّ الإدارة أبلغته أنّ عليه ان يبقـى في المنزل خلال فترة الامتحانات. ومرّة انتظر بلهفة عودة ابـن جيرانهم الذي يزامله في الصفّ كـي يقرأ له ورقة الامتحان فـي اللغة العربيـة فأنجزها شفوياً بسرعة وكلّه ثقـة بأنه لم يرتكب أيّ خطـأ. وبعـد أيـام كان رفيقه يؤكد له عـدم اقترافه أيّ خطأ. وكثيـراً مـا ساعد باسم رفيقـه، ابن الجيران فـي دروس العربية وكان يحصـل على علامات عالية. بل إنّـه ألّف له مرّة موضوع إنشاء كان هو الأفضل وحاز عليه علامة «جيد جداً».

في الصباح التالي نهض باسم شديد العزيمة، فهو قرّر أن يكون قوياً ومتماسكاً أمام اللجنة. في هذا الصباح شعر بأنه لم يعد يحتاج الى يوسف لكي يساعده في التنقل داخل المبنى. فهو حفظ بسرعة الخطوات التي عليها أن يقوم بها، وحفظ أيضاً خريطة المكان بكاملها. صار يعرف بسهولة أين المطبخ وأين الحمام وكيف يصل الى غرفة الجلوس والى غرفة الطعام. وقد ساعدته العصا المعدنية التي قدّمتها له المديرة على تلمّس طريقه بسهولة. وعندما أعطته المديرة العصا، راح يلمسها ويتحسسها ووجدها شديدة الاختلاف عن عصاه الخشبية التي أصرّ على الاحتفاظ بها، مع أنّه كان يعلم أنّه لن يستخدمها بعد الآن.

بعدما تناول باسم فطوره مع رفاقه توجّه الى صالة الجلوس، منتظراً مجيء يوسف الذي سيقوده الى الغرفة التي سيلتقي فيها اللجنة. ولم تمضِ عشر دقائق حتى جاء يوسف. خفق قلب باسم، فهو لم يختبر مثل هذا الامتحان سابقاً وكان يسمع رفاقه يتحدّثون عن الرهبة في الامتحانات الشفوية التي يشعرون خلالها بالحرج، وعليهم ألا يتعجلوا في الإجابة أو يتعثّروا وهم يجيبون.

جلس باسم الى طاولة أدرك أنها ليست صغيرة، وأمامه جلس الثلاثة. المديرة عرفها للفور من صوتها، أما الأستاذان الآخران فكان صوتاهما غريبين عنه. رحّبت به المديرة وهنّأته على انخراطه السريع في بيئته الجديدة وعلى تجاوبه مع المسؤولين والرفاق، وعلى قدرته الباهرة على حفظ خريطة المبنى. سأله الأستاذ الأول:

- أين كنت تدرس قبل أن تأتي الى هنا؟

أجابه باسم وقلبه يطرق:

- لم أكن أدرس مثل سائر التلامذة. انني تابعت خلال أربعة أعوام الدروس في مدرسة القرية.

- كيف؟ هل شاركت في امتحانات مدرسية؟

- كلا. كنت أجلس في الصف وأستمع فقط. لم أكن تلميذاً كالآخرين.

- ماذا بقي في ذاكرتك من تلك الدروس؟

- أحببت اللغة العربية كثيراً، ودروس القواعد والإنشاء.

- والدروس الأخرى، ألم تتابعها؟

- أحببت دروس التاريخ والجغرافيا، لكنني لا أحفظ منها إلاّ القليل.

صمت الأستاذ الأول وكأنّه استوعب جيداً وضع باسم. ثم راح الأستاذ الثاني يطرح عليه الأسئلة. قال له:

- هل تجيد مهنة يدوية؟

- لا. بالتحديد لا. لكنني كنت أجيد شكّ أوراق التبغ في الصيف. كان والدي مزارعاً يعمل في التبغ مثل الكثيرين من أهل قريتنا. كان هو يزرع ويجني وكنا نحن، أمي وأشقائي وأولاد عمّي نساعد العمّال ونتولّى توضيب التبغ وشك أوراقه وتشميسها ثم ترطيبها في القبو.

ابتسم الجميع وتغامزوا. ثم أضاف باسم قائلاً:

- بعدما هجر والدي مهنة زرع التبغ، انتقل الى زراعة التفاح والعنب والإجاص والدراق وفواكه أخرى. كان يستأجر مع عمّي البساتين من أصحابها ويتولى زراعتها لقاء مبلغ يسدّده

لهـم. وكان يزرع أيضاً البساتين التــي تملكها العائلة. كنّا نساعده فـي القطـف والتوضيب. عفواً أنا كنت أعمل فـي التوضيب فقط. وكنــت سريعاً جداً في وضع التفاح داخــل الصناديق من دون أن أخدش أي تفاحة.

صمت باسم قليلاً، ثم أضاف:

– فــي الشتــاء قبل أن التحق بمدرســة القرية كنت أساعد أمي في شؤون البيت. أجلي الصحون، أكنس، أوضّب الخبز. وكنت أيضاً أهتمّ بالدجاج في القنّ وأجمع البقول...

– جيد، قال له الأستاذ مبتسماً. وسأله:

– أي نوع من الرياضة تجيد؟

– المشــي فــي الحقــول، وفي الغابــة. كنت أصعــد الروابي مــع رفاقي، نشمّ روائح الأزهــار والأشجار. وكنت أصعد بعض الأشجار بمساعدة رفاقي، لقطف الثمار. لكنّ أحبّ شجرة إليّ هي الصنوبــرة. كنت أحــبّ رائحة جذعها وكذلــك الصمغ الذي كنت أقطفه وأكواز الصنوبر التي كنا نخرج منها البذور اللذيذة.

وبعد أن انتهى من كلامه راح الثلاثة يحدّثونه بمرح ولطف. وتوجهت إليه المديرة قائلة:

– خــلال أيام ستبــدأ المدرســة. وستلتحق أنــت بصفّ اللغة العربيــة أولاً ثــمّ بصفّ القراءة على «البرايــل». وبعدذاك نختار الصفــوف الأخرى التي يجــب أن تلتحق بهــا. وسيكون محترف الأشغــال اليدوية مفتوحاً أمامك، فتختار مــا يناسبك. فأنت مجتهد ومحبّ للعمل ونشيط. المعهد سيكون بيتك يا عزيزي باسم.

انتهى اللقاء وشعر باسم بالكثير من الراحة وخرج من الصالة

فرحـاً. وكان أكثر ما أثـار فيه الشعور بالفرح هـو إلحاقه بصفّ اللغـة العربيـة. فهو كان يحب دروس العربية ويحسّ أنّه قادر علـى النجاح فيها، لا سيّمـا أنّه يميل الى الإنشاء، وقد أملى الكثير مـن فروض الإنشـاء على زينب وعلى شقيقيـه وبعض رفاقه في مدرسـة القريـة. أما القراءة فأثارت حيرتـه، كيف سيقرأ وهو لا يبصر؟ ولـم يفهم الكلمة التي سمعها من المديرة: «البرايل». وهو كان سمـع رفاقه الجدد يتفوّهون بها في غرفة الجلوس. ظلّت هذه الكلمـة تشغل فكره: هل هي طريقة جديـدة للاستماع الى القصص والحكايات؟

إلا أنّ مـا فات باسـم من لقائه باللجنة هو أنّـه لا يستطيع أن يتابـع كلّ الدروس التي يتابعها رفاقه والتي تخوّلهم الحصول على شهـادات بعد التقدّم الـى الامتحانات الرسمية. لـم ينتبه باسم لهذا الأمر الذي لم تعلمه به المديرة، ففرحه بدروس اللغة العربية طغى علـى ذهنه. لقد أصبح باسم في الثالثة عشرة ولم يتابع أي دروس حقيقيـة ولم يُجـرِ أي امتحان. لقد تأخّر كثيـراً عن جيله ويستحيل على الإدارة أن تعيده الى الصفوف الصغيرة ليبدأ كما يبدأ التلامذة الصغار. فات هذا الأمر باسم. لكنّ أمل المديرة كان كبيراً، فهي تشعـر أن هـذا الفتى الذكي سيتمكّن من تحصيـل الدروس وإن لم يحصل على شهادة مثل الكثيرين من رفاقه الذين سبقوه. ومع أنّ باسـم وصل متاخراً الى المدرسة فهـو سيتمكن من إنجاز دروس العربيـة و»البرايـل» بنجاح. هذا ما كانت تفكّـر به المديرة عندما تحدّثت الى باسم.

فـي المساء، عندما تجمّع التلامـذة في غرفة الجلوس، نادى

باسـم صديقه جـورج الذي كان أوّل من تعـرّف إليه في المعهد. اقترب جورج منه وجلس على الكنبة نفسها. قال له باسم:

- أنت صديقي ولن أخجل من أن أسألك عن أمر يشغل بالي.

- ما هو يا عزيزي؟

- سمعـت كلمة «برايل» تتردّد علـى شفاه الكثيرين ولم أفهم حتى الآن ما تعني؟ وما علاقة هذه الكلمة الغريبة بالقراءة؟

ضحك جورج متودداً وقال له:

- هـذه الحيرة أصابتنا جميعاً يـا صديقي، لكننا اكتشفنا سريعاً ماذا تعني هذه الكلمة. وراح يشرح له:

- القراءة بـ «البرايل» هي عبارة عن قراءة بالأصابع. أجل بالأصابـع، لا تُفاجأ. الصفحات تكـون حافلة بنقاط نافرة، وليس على القارئ إلا أن يمرّر أصابعه على هذه النقاط كي يقرأ.

قال باسم مندهشاً للفور: هل صحيح ما تقول؟

- أجـل يـا صديقي. هذه النقـاط النافرة ترمـز الى حروف الأبجديـة، وكلّ حـرف يتمثـل في عـدد النقاط. سأشـرح لك ما دمـت مهتمـاً، مع أنني أعلم أنك لـن تستوعب هذا الأمر إلا عندما تتابـع دروس «البرايل». مثلاً حرف الألـف يمثل نقطة واحدة، الباء نقطتين وهلمّ جراً. وأكبر حرف وهو الظاء يمثل ستّ نقاط. وانطلاقـاً مـن هذه النقاط تتألف الأحرف ومـن الأحرف الكلمات ومن الكلمات الجمل. هل وضح لك الأمر؟

- قليـلاً، لكننـي ما زلـت عاجزاً عن استيعـاب مسألة تحوّل الحـروف والكلمات الـى نقاط نافرة على صفحـة بيضاء كما قلت لي.

- الآن، لا تشغل بالك، ستفهم هذه المسألة عندما تتعلّم هذا النوع من القراءة المخصّصة للمكفوفين.

سأله باسم: هل نقرأ بهذه الطريقة كلّ ما يَحلو لنا قراءته من قصص وحكايات؟

قال جورج: لدينا في المعهد مكتبة كاملة للتلامذة وفيها كل أنواع الكتب، وكلّ كتب الدروس التي نتابعها في المعهد. وفيها أيضاً كتب بالانكليزية لكلّ الصفوف.

تذكّر باسم هنا، دروس اللغة الفرنسية التي تابعها في مدرسة القرية وكان يشعر أنه غريب تماماً عن هذه اللغة التي لم يحفظ منها سوى بضع كلمات. وكان خلال هذه الدروس يبتعد في تفكيره، يتذكر أو يتخيل نفسه يمشي في الحقول أو يجلس على سطيحة البيت. لم يستطع باسم أن يلمّ بهذه اللغة الغريبة، على عكس اللغة العربية التي كان يألفها كثيراً ويتعلّق بها وكأنها سلواه الوحيدة.

أخرجه جورج من سهوه قائلاً له:

- أين أنت؟ بماذا تفكر؟ لم أخبرك أيضاً عن جهاز الكومبيوتر الذي ستتعلم كيف تكتب عليه، بالأصابع أيضاً. لكنّ دروس الكومبيوتر ستتلقاها لاحقاً، بعد أن تصبح قادراً على القراءة. آه. لقد نسيت أن أخبرك أيضاً عن الكتب المسموعة التي نقرأها بالسمع. أجل بالسمع.

- كتب مسموعة؟ كيف؟

- ألم تسمع أحداً يقرأ لك القصص بصوته؟ أمك أو ابوك أوأحد أشقائك قرأوا لك حتماً قصصاً وكنت أنت تستمع إليهم وكأنّك تقرأ القصص بأذنيك.

– أجل، لقد قرئ عليّ الكثير ولا سيّما سور القرآن الكريم.

– هـذه الكتـب يا صديقـي هي عبارة عـن شرائـط، نسمّيها «كاسيتـات» أو أسطوانات نسمّيها «سي دي». نضع هذه الشرائط والأسطوانات في آلة ونروح نستمع الى أصوات تقرأ صفحات من كتـب عديدة. والأصـوات هذه تكون مسجّلة سابقـاً وهي أصوات أشخاص يجيدون القراءة ولا يقترفون الأخطاء.

صمت باسم وابتسم وقال لرفيقه:

– لقـد أفرحتنـي بمثل هذه الأخبار. إننـي لن أعرف الضجر هنا، ما دامت الكتب متوافرة وما دمت سأصبح قادراً على القراءة، بالأصابع والأذنين.

– عندما ستبدأ الدروس، لن تشعر يا صديقي بأي ملل أو عزلة. إسألنـي أنـا. لقد مضـى عليّ هنا حوالى ست سنيـن، ولم أعد أطيق العيشـ خارج هذا المبنى الكبير. لكنني طبعاً متعلّق بأهلي، أزورهم دوماً ويزورونني وأقضي في منزل الأسرة الفرص التي يمنحنا إياها المعهد، إضافة الى عطلة الصيف. هذا المعهد أصبح أسرتي الثانية.

فكّر باسم وقال لنفسه:

– كيف سأزور أهلي وكيف سيزورنني هم والقرية بعيدة وأبي لا يملـك سيّارة وهو يعمل ليـل نهار ليؤمن قوت العائلة الصغيرة؟ هل سينسانـي أهلي؟ شقيقاي وشقيقتي هـل سينسونني؟ أمي، كيف يمكنني البقاء طويلاً بعيداً عنها؟

فـي الليل لم ينم باسم جيـداً. ما زال غير قادر على استيعاب واقعـه الجديد. الشوق الى قريتـه يستعر في قلبه. هذه القرية التي ولـد فيها ونشـأ وعاش على زقزقـات عصافيرهـا وخرير نهرها

وهبـوب نسائمها ووقع المطر فـي الشتاء وزمجرة العواصف...
هـذه القرية التي تقـع في قلب الطبيعة، بروائحهـا العطرة وصفاء هوائهـا. تذكر كيف كان يسأل زينـب، ابنة عمه: ما لون الهواء؟ فكانت تضحك بتودّد وإلفة قائلة له: «الهواء لا لون له. إنّه يمرّ بنا، يلمسنا ولا نراه». تذكر أيضاً كيف راح يسألها عن الشمس فتصفها لـه، ولكنّه مـا كان قادراً على تصوّرها كاملة. تقول له: إنها أشبه بدائرة صفراء، وتمسك يده وترسم بها دائرة. ومرّة جلبت صحناً ووضعتـه بين يديه وقالت له: إنهـا مستديرة مثل هذا الصحن. أما أكثـر ما يستغربه فهـو غروب الشمس، كما كان يسمعهم يقولون. فالشمس تشرق ثم تغيب غارقة في البحر. وفي اليوم التالي تشرق من جديد وكأنها لم تغرق.

كانـت زينـب هي وحدها التـي تستمع الـى أسئلته هذه، وهو أصـلاً لـم يكن يسـأل أحـداً سواها. وكانـت تجيبه بمـا أمكنها أن تجيبـه، معتمـدة علـى الدروس التي كانـت تتلقاها فـي الصفوف الصغيـرة. حينـذاك لم يكن باسم قد التحـق بالمدرسة. لكنه عندما بـدأ يتابع الدروسـ راح يفهم أكثر فأكثر الأسـرار الصغيرة التي كان تشغـل رأسه. حدثهم أستاذ الجغرافيا عن الكرة الأرضية التي تدور حول نفسها، وعن الشمس والقمر والكواكب، وعن الطبيعة والهـواء والغيـوم والمطر... وكم كان يتمنى لو أنّه يبصر لينظر الـى الرسوم التـي تضمّها الكتب. وكان أستـاذ الجغرافيا هذا يعلّم التلامـذة أيضاً مادّة التاريخ. وكم كان يسرّ عندما يسرد لهم سيرة النبـي (صلّى الله عليه وسلّم) والخلفاء الراشدين وتاريخ لبنان. لم يكـن يستوعب كثيراً التواريخ والحقب، لكنّه كان يصغي جيداً الى

دروس التاريخ، مبهوراً بحكايات البطولة.

سأل باسم مرّة زينب: ما شكل القمر يا زينب؟

أجابته: إنه دائري ولونه يتبدّل، أحياناً يكون أبيض كالفضة، وأحيانــاً يصبــح له شكل الهلال. ثم مسكت يــده ورسمت بها شكل الهلال. استغــرب باسم ولم ينبُسْ بكلمة. وعندما التحق بالمدرسة فهــم معنى الهلال كما شرحه لهم الأستاذ. لكنّ باسم ظل يسأل: ما لون الهواء؟ وكأنّه لم يصدق أن الهواء لا لون له.

كان باســم يستعيــد هذه الذكريات ليلة تلــو أخرى. لم يستطع أن ينسى القرية بتاتاً ولا طفولته فيها ولا الأسرة ولا أشقاءه وأبناء عمه. القريــة حاضرة في قلبه ووجدانه. إنهــا ماضيه وحاضره، حتــى وإن كانت حياته فيها محفوفة ببعض الحزن والعزلة. كانت عيناه تدمعان كلّما تذكّر القرية التي لم يمضِ على فراقه إياها أكثر مــن أسبوع. كانت هذه الأيــام القليلة طويلة. فالحنين يضطرم في روحــه، لا سيمــا الحنين الى أمه التي كانت أقــرب إليه من ظله. كان يشعــر كأنّــه يبصر بعينيها من شدّة مــا كانت تحبّه وتحنّ عليه وتحضنــه. اعتــاد أن يضــع يديها بيــن يديه ويقبلهمــا وكانت هي تضمّــه وتقبله. ولطالما سردت له حكايات كانت قصّتها عليها أمها وجدّتها. حكايات خيالية، بعضها كان يخيفه وبعضها كان يحمله الى عالم من الغرائب. حكايــات عن الفانوس السحري والمارد، عن بساط الريح والأميــرة المأسورة، عن العصفور الذهبي والشجرة الناطقــة... حكايات اكتشف لاحقاً أنهــا تشبه الحكايات التي كانت تقرأهــا عليه زينب ابنة عمّه. لكــنّ الحكايات في كتب زينب كانت أطول وأجمل.

عندما غادر باسم البيت مع رئيس البلدية لم تستطع الأم ضبط نفسها من البكاء. ومع أنها بكت بصمت كما أصر عليها زوجها، فإنّ باسم علم أنها تبكي. ضمّته بين ذراعيها وشدّته الى صدرها ولم تتفوّه بكلمة. أما والده فراح يشدّ من عزيمته مخاطباً إياه وكأنّه رجل قادر على تحمّل أي مسؤولية تلقى عليه. أشقاؤه لم يبكوا، ملبّين طلب الأب، لكنهم حزنوا كثيراً تماماً مثل أبيهم. لم تنم الأم في الليل. ظلّت تبكي ساعات. كان زوجها يرجوها أن تنام مطمئناً إياها أنها مشيئة الله وأن باسم سيكون له مستقبل جيد. طلع الفجر وأم باسم مفتوحة العينين، لم تنم لحظة، تظاهرت بالنوم لتُرضي زوجها. كان فراق ابنها صعباً عليها. كان بالنسبة إليها أشبه بالابن الوحيد، تنتبه إليه وتخاف عليه وتحيطه بالحنان. لكنّها طبعاً لم تهمل أولادها الآخرين البتة ولا زوجها، هذا الأب الصالح. لكنّ باسم كانت له حظوة خاصة في قلبها. كانت مؤمنة وورعة، تصلّي وتصوم شهر رمضان. تقبّلت مشيئة ربها على رغم الألم الذي ما لبث أن تحوّل حناناً ورأفة.

في الصباح افتقدت الأم ابنها باسم كثيراً. كان باسم يصحو قبلها مع والده ويؤدّيان صلاة الفجر. وكان يجلس بالقرب من فراشها منتظراً إياها أن تصحو. وأحياناً كان يلامس وجهها برقّة ليوقظها. فتنهض وتضمّه وكأنّه طفل. عندما اخترق ضوء الفجر ستارة الظلام، قامت الأم من فراشها، اغتسلت وصلّت. حضّرت

القهوة وحملتها على الصينية الى السطيحة حيث كان يجلس زوجها. كان الديك يصيح والسماء تعبرها غيوم الخريف. أوراق الشجر تميل الى الاصفرار والنسيم بارد قليلاً. شربا القهوة من دون أن يتحدّثا كثيراً. ثم خرج الأب عن صمته:

- يا زوجتي الحبيبة، يا أم باسم، يا أم أولادي، يجب أن نتحمّل لوعة الفراق هذا. باسم سيظل ابننا وسيكون دوماً معنا ونكون الى جانبه. إنها مسألة أيام ونعتاد على غيابه. سنزوره دوماً، وسيأتي الى البيت دوماً. لقد اتكلنا على الله والله وليّنا. علينا أن نفكر بعقلنا أيضاً. هل نترك باسم وحيداً، بائساً، لا يجيد مهنة ولا يعلم شيئاً مما يدور حوله؟ هل تريدينه أن يبقى تحت رحمة الآخرين؟ كم سنعيش نحن لنظلّ الى جانبه؟ أشقاؤه لن يبقوا هنا، بعد سنوات سيهجرون القرية الى المدينة ليبحثوا عن مستقبلهم، وسيبقى باسم وحده، من دون رفيق ولا زوجة ولا ولد.

قاطعته زوجته قائلة بصوت مبحوح:

- الحق معك، أنت أب أيضاً مثلما أنا أم. أنا مقتنعة تماماً بما تقول ولقد اتكلت على الله، وهذه مشيئته. لكنّ هناك قلب الأم. وأنت تعلم ما هو قلب الأم. إنه ابني، ابني الضرير، حشاشة روحي وتنهيدة صدري. ثم أدمعت عيناها. ولم تمض دقائق حتى نهضت قائلة لزوجها:

- سأكسر هذا الحزن وأتخطى هذا الألم الذي يعصر قلبي.

لم تمضِ عشرة أيام حتى بدأ الفصل الدراسي. عاد جميع التلامذة الى المعهد من عطلة الصيف والذين أمضوا الصيف في

المعهـد كانوا على أتمّ الاستعداد للبـدء في الدراسة. التقى التلامذة جميعـاً وراحـوا يتحدّثون عـن فصـول الإجـازة الصيفية وكيف أمضوها، في القرى والمدن، بين أهلهم ومع أشقائهم. أما التلامذة الجـدد وكانوا قلّة هـذه السنة، فتعرّفوا علـى القدامى الذين رحبوا بهـم وكأنهم أصدقاء. فالمعهد يصرّ على مبدأ الصداقة بين التلامذة جميعـاً. ولكم حدّثتهم المديـرة عن ضرورة التعاون في ما بينهم، فهـم إخوة في عائلة واحـدة، وعلى الكبير منهم أن يساعد الصغير وعلى تلامذة الصفوف العالية أن يساعدوا تلاميذ الصفوف الأدنى. وفعلاً كان جميع التلامذة يعيشون في حال من الوئام. المشاجرات بينهم قليلة وغالباً ما تكون أسبابها نافلة وسرعان ما تزول. وكان مـن الطبيعي أن تحصل هـذه المشاجرات بين الفتيان، لا سيما في الملعـب. أما في الصفوف فيكون الجميع يـداً واحدة وقلباً واحداً، يتعاونون على الدرس والحفظ.

كانـت اللجنـة التي قابلت باسـم قد احتارت فـي شأن الصف الـذي عليها أن تلحقـه به. فهو في الثالثة عشـرة من عمره، لكنه لا يستطيـع أن يلتحـق بالتلامـذة الذيـن يجايلونـه، فهم أتـوا قبله بأعوام الى المعهد وسبقوه في كلّ الدروس، ويتهيأ معظمهم لتقديم الامتحـان الرسمي لشهادة البريفيـه بعد سنتين. وكان من الصعب إلحاقه بالصفوف الأولى، فالتلامذة بمعظمهم أصغر منه بسنوات. وارتـأت المديرة أن تقسّم دروسه بين عدّة صفوف. اللغة العربية يدرسها مع مجايليه، ودروس الجغرافيا والتاريخ مع الأصغر منه ودروسـ «البرايل» مـع المبتدئين. وهذا التـوزّع على أكثر من صـفّ سيجعل باسم على علاقة بكثير مـن الرفاق، بعضهم يجايله

وبعضهم يصغره سناً.

كان مصيــر باسم قد بدا واضحاً في نظر المديرة. فهو سيُقلع جيداً في دروس العربية وسينافس رفاقه، أما في دروس الجغرافيا والتاريخ فسيكون متأخراً عنهم وكذلك في دروس اللغة الانكليزية التــي سيتلقاها مــع الصغار. كانت المديرة تتصوّر أن اللغة العربية ستكون المجــال الوحيد الذي سيحلّق فيه باسم، وقرّرت أن تركّز علــى مساعدته في هــذه الدروس، موفّرة له كلّ ما يحتاج إليه من كتب سمعية، الى أن يتمكّن من القراءة بـ «البرايل». وفكّرت في أن باسم، نظراً الى قوّته البدنية وصحته الجيدة، يستطيع أيضاً أن يتعلّم بعض المهن اليدوية، فيجمع هكذا بين العلم والمهنة.

كانــت المديرة بمثابة أم لجميــع التلامذة. سيدة نذرت حياتها وعلمهــا لخدمة المكفوفين. وكانت حصلت على شهادة جامعية عليا مــن إحــدى الجامعات البريطانيــة، متخصّصةً فــي تربية الأطفال المكفوفيــن. ونظراً الى خدماتها الجليلة في هذا الميدان وانجازاتها الكثيرة منحها وزير التربية قبل عامين وساماً وأقام لها حفلة تكريم في مبنى الوزارة، وتولّت فرقة المعهد الموسيقية مهمة العزف في الحفلة، والفرقة مؤلفة من عازفين مكفوفين هم من تلامذة المعهد. ومثلما اعتنــت المديرة بكل التلامذة المكفوفين اعتنت بباسم وأولته اهتمامها، وقلبها يقول لها بأن باسم سيكون له مستقبل مشرق.

كان اليــوم المدرســي الأول ممتعاً، قضــاه باسم في صفّين، صــفّ الدروس العربية وصفّ اللغة الانكليزيــة. لكنّ أمراً واحداً كاد يعكّر هذا الفرح الذي خالجه وهو اختلاف رفاقه بين الصفّين. فرفــاق صــف العربية يجايلونه عمــراً أما رفاق صــفّ الانكليزية

فأصغر منه بسنوات. في الصفّ الأول تحدّث مع رفاقه ومازحهم ومازحوه، وبدا منذ الساعة الأولى قادراً تماماً على مرافقتهم في الدرس. في الصف الثاني شعر بأنه طفل يتعلّم الأحرف الأولى. وهذا ما حصل فعلاً، فالتلامذة كلهم لا يجيدون الانكليزية وعليهم أن يبدأوا من الصفر. كان في هذا الصف ثلاثة تلامذة من عمر باسم أو أصغر قليلاً، لكنّه لم يتسنّ له أن يتعرّف عليهم جيداً. في الصفّ هذا قرّر باسم أن يجهد نفسه ليتلقن الدروس الأولى في الانكليزية بسرعة عسى الإدارة ترفعه الى صفّ أعلى ثمّ يواصل الجهد فترفعه مرّة أخرى الى صفّ أعلى. لم يسرّه أن يكون في صفّ هؤلاء الصغار الذين يحبّهم، فهو في الثالثة عشرة ويجب أن يكون مع الذين يجايلونه.

في اليوم التالي بدأ دروس الجغرافيا والتاريخ وسرّ باسم كثيراً، فرفاقه لم يكونوا أصغر منه كثيراً، فهذه الدروس تُعطى في سنوات لاحقة. لم يواجه باسم صعوبة في متابعة ما يشرحه الأستاذ، فهو كان حفظ الكثير من دروس التاريخ والجغرافيا التي أصغى إليها في مدرسة القرية.

طلب باسم من المسؤولة عن المكتبة إن كان بإمكانه في ساعات الفراغ لا سيما بعد الظهر، أن يستمع الى الكتب الصوتية أو المسجّلة التي تضمّها المكتبة. وافقت المسؤولة على الفور ورحّبت بطلبه وأعربت عن سرورها به، فالتلامذة عادة يؤثرون اللعب في هذه الأوقات على القراءة. وأشار باسم إليها إنّه يريد أن يتابع الكتب المسموعة التي تساعد على تعلّم الانكليزية والتي كانت حدّثته عنها المعلّمة في الصف.

انصرف باسم الى قراءة الكتاب الأول، مصغياً الى الدروس المسجّلة، درساً تلو آخر. وكان يعيد الاسطوانة مرّة واثنتين وأكثر في أحيان، وكلّ همّه أن يحفظ غيباً المفردات والأرقام التي يتمّ شرحها بطريقة سهلة موجّهة الى المكفوفين. وعندما كان يتعب أو يملّ، يخرج الى نزهة في الملعب الكبير. ينادي بعضاً من رفاقه ويشاركهم اللعب والمرح. وكان جورج أشدّ الرفاق قرباً الى قلبه. وقد ساعده في أمور كثيرة ووطّد من عزيمته وأعانه في الاعتماد على نفسه. ومن حسن حظ باسم أن جورج كان زميلاً له في صف الدروس العربية، يجلس الى جانبه على المقعد نفسه.

عندما انتهت الدروس بعد الظهر أبلغه يوسف، المسؤول عن شؤون التلامذة، أنّ عمّه اتصل بالمعهد وأعلمهم أنّه سيزور ابن شقيقه بعد ظهر الجمعة. فرح باسم بالخبر كثيراً وتمنى لو أنّ زينب ستكون مع عمّه. فهو اشتاق اليها والى شقيقيها اللذين لم يلتقِ بهما منذ أن غادرت عائلة عمّه القرية الى بيروت إلا مرّات قليلة. يعلم باسم أنهم يسكنون بيروت مثله، لكنه لا يعلم أين، بل هو أصلاً لا يعرف من المدينة إلا هذا المعهد. كان يتمنّى لو أنّه هو مَن تحدّث الى عمّه على الهاتف، كما تحدّث مرّتين مع والده وأمه اللذين اتصلا به من القرية للإطمئنان عليه. كان كلام أمه متماسكاً لا يعتريه حزن أو غصّة وقد شجعته على الدراسة ووعدته بأنّها ستزوره قريباً جداً مع الأسرة.

في المعهد هاتف عام للتلامذة، مثبت في غرفة الجلوس. واستخدامه يتطلب وضع قطع معدنية يشتريها التلامذة من دكان المعهد. لم يفكّر باسم في شراء قطع للاتصال بأهله. كان مكتفياً

بـأن يتصلوا هم به وإلا فإنّــه سيتعلّق بهذا الهاتف. وكانت الإدارة أصلاً توصي التلامذة بألاّ يكثروا من الاتصال بالأهل، حتى يتمكّنوا من الانصراف الى الدرس ومن الاعتياد على حياتهم الجديدة.

فـي الليـل فكّـر باسـم كثيـراً بابنة عمّــه زينــب. كان يحبّها ويحترمهـا. فهـي كانت تحنـو عليه حنوّ الأم وتخصّــه بالكثير من وقتهـا، تقرأ لــه كلّ يوم قصصاً وتدرس معــه، متيحة له الفرصة ليستمع الى دروسها، علّه يستفيد منها. تذكّر كم حزن عندما غادر عمّــه والأسرة القريــة الى بيروت، بعدما تلقى عمّــه عرضاً مهماً للعمـل في وزارة الزراعة. وكان رئيـس البلدية هو مَن سعى له بهـذه الوظيفــة التي كان مؤهلاً لها، نظراً الــى خبرته الطويلة في الزراعة. أما والده فيرفض دوماً هجرة القرية، مكتفياً بما يحصده مــن مواسم الــزرع، وإن كان بالكاد يكفي العائلــة. وكانت الأم تذكّره دوماً بمستقبل الأولاد حين يكبرون ويرد عليها دوماً: عندما يكبــرون وينتهون مــن دروسهم في الثانوية نتدبّر أمر انتقالهم الى بيــروت. وكان شقيقا باسم وشقيقتــه يتابعون دروسهم في مدرسة القريــة المجاورة لقريتهـم، وهي مدرسة ابتدائيــة وثانوية في آن واحـد، رسمية ولكن ذات مستوى راقٍ فــي التعليم. وكانت كلفة الالتحــاق بها زهيـدة، يضاف إليها إيجار الباصـ الذي كان ينقل الأولاد الى تلك المدرسة. سعى رئيس البلدية الى إلحاق باسم بتلك المدرسة، لكــنّ مديرها رفض متذرّعاً بأسباب مهنية، فألحقه أهله بمدرســة القريــة الابتدائية القريبة من المنزل بعــد موافقة المدير. لكنّ التعليم كان ضعيفاً فيها والصفوف لا تضمّ تلامذة كثيرين.

فــي تلك الليلة، ليلة الخميس، حلم باسم بزينب. حلم بها تقرأ

لــه قصة «السندباد البحـري» التي أحبها كثيراً وطلب منها أن تعيد قراءتهـا له أكثر من مرّة. كان يحلم بصوت زينب وليس بوجهها فهـو لا يعرف ملامحـه. لكن الحلم بالصوت هـو حلم جميل وإن كان بــلا وجــه ولا صورة. كان يخيـل إليه أنّــه يراها من خلال كلامها وطريقتها في الكلام.

كان باسم قادراً فعلاً أن يميّز للفور بين الأشخاص من خلال أصواتهم. حتى الأقــارب أو الجيران الذين يزورون الأسرة بين حين وآخر كان يعرفهم بمجرد أن يسمع أصواتهم. وكانوا يعجبون بقدرته على معرفتهم. الاصغاء واللمس هما الوسيلتان المتاحتان له للتكيـف مع العالم والعيش فيه. كان، إذا وصف له شقيقه شجرة، يصــر على لمسهــا بيديه ليعرف كيف هي. وكــم لمس من نباتات وأزهار وفواكه، كم لمس من أشياء بات يعرفها ويحفظ أسماءها. كان يتصوّر أشكالها من لمسه إيّاها بيديه. «يداك ذكيّتان» هكذا قال لــه مرّة أحد الأساتذة في مدرسة القرية، عندما لاحظ كيف يحرّك يديــه ويتلمس بهما الأشياء. حتى في البيت لــم يدعْ شيئاً إلاّ تلمّسه وبــات يعرف كلّ ما يحيــط به. كان يعرف شقيقه الأصغر بمجرد أن يضع يده على وجهه، وكذلك شقيقه الثاني. وكذلك أبناء عمه. كان يلمس كثيراً وجه أمه ويتخيّله جميلاً وبهيّاً. أما السمع فكان في قوّة اللمس أيضاً.

حلم في تلك الليلة بشقيقيه وأبناء عمّه. وجد نفسه معهم يلعبون في الباحة ويمشون في الحقول يقطفون الأزهار ويشمّون روائحها الزكية. وجد نفسه معهم في أماكنهم الطفولية في القرية. وكان يحتار دومــاً كيـف كان يتنقل في الحلم من مكان الى آخر عبر الأصوات

التــي يسمعها والروائح التي يشمّهــا. لا ينسى جلوسهم قرب النهر وخريــر الماء فيه. لا ينسى زقزقــة العصافير في الحقل، لا ينسى التراب والحصى والحجارة التي كانوا يلعبون بها. يتمرّغون على العشب ويجلسون تحت ظلال السنديان والحور. وكان باسم يحب شجــر الصنوبر، يضمّ الجــذع بيديه ويشمّ رائحــة الصمغ وأحياناً يقطــف الصمــغ اليابس مع قشور الجــذع. وعندما كان الآخرون يُسقطون أكواز الصنوبر مستخدمين الحجارة، كان يحمل هو عدّة أكواز، يفتحها بأصابعه بحثاً عن حبات الصنوبر. وكانوا يجلسون جميعــاً يكسرون هذه الحبات القاسيــة ليأكلوا الحبيبات البيضاء التي فــي داخلها. وكم كان يطيــب لباسم أن يلتهــم الحبيبات ويمضغها بهــدوء. أما الجوز واللــوز فلهما حكاية جميلة أيضــاً في طفولته. كان يأخــذ الجوزة ويدقّها بالحجر ويخــرج قلبها اللذيذ ويأكله. أما اللــوز فكان كسره أصعب من كسر الجوز وكانت بضع حبّات منه تفــرّ من تحت الحجــر فيتلقاها أحد الفتيان ويحتفــظ بها لنفسه رغم تبرّم باسم.

هــل كان باسم يحلم أم يتخيل؟ أم تراه كان يتذكّر أيام القرية في تلك اللحظات التي يتأرجح فيها بين النوم واليقظة؟ لم يكن باسم يجيــد التمييز بين الحلم والتخيّل فــي تلك اللحظات التي يغزوه فيها النعاســ. لكنّه كان يشعر بالكثيــر من الحبور، لاستعادته ذكريات القريــة أيام الصيــف. ولعلّها المــرّة الأولى في حياتــه يشعر بأنّه يميــل الــى التذكر وكأنّه يجد فــي ذكرياته القليلــة بعضاً من الفرح الطفولي. كان على يقين بأن أيام القرية كانت جميلة جداً ولم يتأكد لــه جمالها إلا عندما التحق بالمعهد. كان ينعم هناك بالحرية، يلهو

فـي الطبيعـة، غير خاضع لأي نظام. حتـى ساعات المدرسة في القريـة كانت جميلـة لأنه كان فيها تلميذاً حراً، لا فروض عليه أن ينجزهـا ولا دروس ليحفظها غيباً. أحبّ باسم مدرسة القرية كثيراً مع أنّه كان يعلم في قرارته أنّها لا تكفيه، فهو كان يطمح فعلاً الى الدراسـة ولكنْ لم يكن يعرف كيف يحقّق طموحه هذا. صحيح أنّه استغرب جـوّ المعهد في الأيام الأولى وتأثر كثيراً لهجره القرية، لكنّـه كان يحسّ أنّه يبدأ مرحلة جديدة من حياتـه، وأنّه سيبدأ في تحقيق الطموح الذي يصبو إليه.

ظـلّ باسم موزّعاً بين حنينه الى القرية والأسرة وبين الواقع الجديـد الـذي أتاح له المعهـد أن يحياه. هـذا الإحساس يخفيه في قلبـه، هو الذي طالمـا شعر بأنّه أكبر من عمـره وأكبر من رفاقه الذيـن يجايلونـه. هل جعله فقـدان البصر ينضج أبكـر من رفاقه؟ أم أن الحـزن الـذي يخز قلبه هـو الذي منحه قـدرة على التفكير والاجتهـاد؟ كان باسم يحـزن عندما يجد نفسه وحيداً في البيت مع أمـه، بينمـا أشقّاؤه في المدرسة. كان يحـزن عندما يجد نفسه في أحيان كثيرة عاجزاً عن القيام بما يقوم به رفاقه من ألعاب تتطلب قدرة لا يملكها. كان يحزن عندما يحدّثونه عن التلفزيون والرسوم المتحرّكـة والأفلام المخصّصة للأولاد، كان هو يجلس معهم أمام الشاشـة الصغيرة متابعاً البرامج بأذنيـه، متحسّراً على عدم قدرته علـى المشاهـدة. كانـوا يحدّثونـه عن أشيـاء كثيـرة لا يبصرها. الألوان، كم كان يتمنّى لو أنّه قادر على أن يرى الألوان. الأحمر، الأخضر، الأصفر، البنّي، البرتقالي، الأزرق... كانوا يقولون لـه إنّ الشمس تكون عنـد الظهيرة صفراء وعنـد الغروب تصبح

برتقالية. كانوا يقولون له إنّ السماء في الصيف زرقاء وفي الشتاء رمادية ملبدة بالغيوم. كانوا يقولون له إنّ البحر أزرق والأرض بنّيـة وأوراق الشجر خضـراء والعشب أخضـر... لم يكن باسم يستوعـب هذه الفروق في الألوان. كان يتمنّـى لو أنّ لها أحجاماً ليلمسها بيديه أو لو أنّ لها روائح ليشمّها بأنفه. كان يسأل دوماً: ما لون الهواء؟ وعندما يقولون له إنه بلا لون كان يسأل أيضاً: لماذا الهواء بلا لون؟ كانوا يحدّثونه عن النور الذي تتوزّع ألوانه ملء الطبيعـة. كانوا يحدّثونه عن قوس القزح بألوانه المتعدّدة والبهيّة. كان يسألهـم عـن هذا القوس فيقولون له إنه يبـدأ من زاوية بعيدة وينتهـي في زاوية بعيدة حاضناً الأفـق بألوانه. وكي يفهمه رفاقه مـا هو القوس أتوا بسلك وجعلوه على شكل قوس فلمسه من جهتيه ولم يستوعبه جيداً. وخطرت لهم فكرة أخرى: جلسوا جميعاً على بقعة من التراب وأعطوا باسم مسماراً وساعدوه على رسم قوس. أدرك باسم كيف يكون شكل القوس وكيف يمكنه أن يكون صغيراً أو كبيـراً. ثمّ تذكر حينذاك الدائرة التي طالما رسمها على التراب فقـال لهـم: القوس هو نصـف الدائرة. وسألهـم: أليس الهلال هو نصف القمر؟

كان يوم الجمعة يوم عطلة في المعهد، مثله مثل يوم الأحد. نهض باسم باكراً كعادته. اغتسل وتوضأ وعاد الى زاويته حيث سريره وخزانته. أخرج سجادة الصلاة وصلّى. كانت الصلاة تملأ حياته بالطمأنينة والرضا. تمنحه الكثير من الرجاء. وكم كان يفرح عندما يسمع أمّه وأباه يبسملان ويحمدلان بورع وتقوى. وكان يصرّ على والده أن يقرأ له آيات من القرآن، وقد حفظ الكثير منها غيباً. كان يقرأ الفاتحة دوماً.

عندما أنهى باسم صلاته توجه الى غرفة الجلوس. كان رفاقه في غرفة النوم لا يزالون يغطون، فاليوم يوم عطلة ويحقّ لهم أن يناموا حتى العاشرة. الأسرّة كلّها امتلأت ولم يبق سرير فارغاً. أنهى باسم فطوره الذي اعتاد عليه كلّ صباح وانتقل الى الباحة الخارجية ليجلس على المقعد متمتعاً بهذا الصباح الدافئ وغير الماطر. كانت عصاه المعدنية الجديدة تطرق أرض الباحة وسرعان ما وجد المقعد الذي يؤثر الجلوس عليه. في هذه الباحة كان الفتيان والفتيات يلتقون في أوقات العطلة. الفتيان يفدون من مبناهم والفتيات يفدن من مبناهنّ فيلتقون ويتحدّثون ويتبادلون الآراء في شأن الدروس والكتب. فالأساتذة الذين يعلّمونهم هم أنفسهم، يتنقلون بين مبنى الفتيات ومبنى الفتيان. وكانت المكتبة مشتركة وكذلك غرفة آلات الكومبيوتر التي كان بعض التلامذة يتلقون فيها دروساً في الكتابة على الكومبيوتر. وهذه الدروس

كانت تعطى للتلامذة المتقدّمين في صفوفهم وليس للصغار.

لم يكن قد خرج أحد من المبنيين الى الباحة. راح باسم يفكر في هذا اللقاء الذي طالما تمنّاه. فهو مشتاق فعلاً الى عمّه وأبناء عمّه وزينب خصوصاً. هل سيخفق قلبه لها عندما سيسمع صوتها؟ هل ستفرح به مثلما كانت تفرح به دوماً؟ كيف حالها في المدرسة؟ مَن يساعدها في دروسها؟

كان باسم يطرح هذه الأسئلة على نفسه وهو على يقين بأنّ الشعور الذي يكنّه لها يتخطى حبّه لأبناء عمّه وأشقائه. إنّ لها في قلبه مكانةً خاصة، لكنه لم يجرؤ يوماً على البوح بهذا الشعور لأحد. وقد تكون زينب التي تكبره بحوالى عشرة أشهر على علم بهذا الإحساس الذي يكنّه لها، ولم تكن تبوح به أيضاً. وهي تميل إليه كثيراً وتساعده برضا تام ومحبّة. وقد بكت بالسر عندما غادرت القرية مع أهلها. كانا يمضيان معاً في البيت ساعات ما بعد الظهر، تدرس على مسمع منه، وتقرأ القصص له ولها، وكان يساعدها كثيراً في فروض الإنشاء والقواعد التي كان يتعلّمها في مدرسة القرية. وكم من مرّة طلب منها أن تعيد قراءة الدروس في كتاب القواعد وكتاب القراءة، فيستمع اليها ويسجّل في ذاكرته كلّ ما يسمع.

لقد كبرت زينب، كان يقول في نفسه. كيف أصبح وجهها الذي كان يلامسه بيديه في عهد الطفولة ثم توقف عن ملامسته خجلاً بعدما كبرا قليلاً؟ كان يحبّ وجهها بحسب ما يتذكره عبر تلك الملامسات الطفولية الأولى. وكان في أحيان يتلمس وجهه ليتذكر وجهها فهو لا يستطيع أن يرسم صورة له في ذاكرته. ومثلما

أحــبّ وجهها أحــبّ صوتها أيضاً، صوتها الرقيق والعذب الذي لا ينساه لحظة. كان باسم بريئاً في هذا الحبّ السرّي والصامت، لكنّ الفتيــان في هذا العمر يحبّون حقاً بصفاء تام. وكيف إذا كان الفتى كفيفاً يحتاج الى الكثير من الحنان والعطف؟

كاد ينفــد صبــر باسم في انتظار الساعــة الثالثة بعد ظهر يوم الجمعــة ذاك. اهتــم بوجهــه وهندامه وجلس في غرفــة الضيوف ينتظــر. ولم تمضِــ بضع دقائق حتــى دقت ساعة الجــدار دقاتها الثــلاث. إنها الثالثة قــال باسم، الآن سيأتــون. بعد خمس دقائق أطــلّ يوســف يرافق العمّ وأسرتــه. ناداه عمّه: باســم. هبّ واقفاً كالرمــح، وراح يضمّهم واحداً واحــداً، ضمّ عمّه وقبّله ثم زوجة عمّه ثم أبناء عمّه. كان قلبه يخفق عندما أتى دور زينب.

صرخت به زينب فرحة: تبدو كأنك كبرت قليلاً يا باسم.

- وأنتِ أيضاً، أجابها، وشقيقاك.

كان عمّه جلب له معه علبة من الحلويات وامرأة عمّه بنطالاً وزينــب كنزة صوف. جلسوا جميعاً فــي غرفة الضيوف ولم يكن فــي الغرفة سواهم. راحوا يحدّثــون باسم ويطمئنون الى حاله في المعهــد والى صحّته ودروسه. وأخبرهــم باسم عن حياته الجديدة والدروس التي بدأ يتلقاها، وأوقات العطلة التي يمضيها مع رفاقه. أبــدى باسم فرحه بحياته الجديدة هذه، الملموءة بالدرس واللعب. لكنّــه لم يُخفِ شوقه اليهــم والى أهله والقرية، والى فصل الصيف فيهــا. سألتــه زينب عن دروســه، فشرح لها ما بــدأ يتلقّاه وكيف صنّفــوه فــي أكثر من صفّ نظــراً الى عمره وعــدم التحاقه سابقاً بالمعهد، إضافة الى دروس اللغة الانكليزية.

قال لها: ستُفاجأين بطريقة القراءة التي سأتعلّمها بعد فترة.

قالت له زينب: القراءة؟

- أجل، القراءة بالأصابع، إنها طريقة حديثة تسمى «برايل».

لم يلفظ باسم هذا الاسم جيداً، لكنه شرح لها ما يعني.

- إنهــا أوراق مثقبــة، ذات نقاط نافرة نلمسها باليدين، وكلّ حرف له عدد من النقاط.

كان من الصعب على زينب أن تفهم هذه الطريقة في القراءة وأبدت له حيرتها.

قــال لهــا: بعد فترة ستأتيــن وسترينني أقرأ بهــا. والآن إنني بــدأت أستمع فــي مكتبة المعهد الى الكتب المسموعــة أو المسجّلة. تصوّري أنّك تستطيعين أن تقرأي قصة أو فصلاً من رواية وأنت جالسة تستمعين الى الاسطوانة، لا تزعجين أحداً ولا أحد يزعجك. فالسمّاعات التي نضعها على الأذنين تحجب الصوت عن الآخرين.

اقتــرح عليهــم باسم أن يقومــوا بجولة صغيــرة على الملعب وغرفة الجلوس والمكتبة التي لا تقفل بابها إلاّ ليلاً. ومشوا صوب الملاعــب والحديقــة. وفرحــوا جميعاً بهذا الجوّ الــذي يعيش فيه. عندمــا عــادوا الى غرفة الضيوف اتصل العمّ ببيت باسم في القرية مــن هاتفه الخلويّ (الموبايل) فردّ عليه شقيقــه عباس، فأخبره أنه يــزور باسم في المعهد مع أسرته، ثــم ناول باسم الهاتف ليتحدّث مع أبيه. قال له أبوه:

- حبيبــي باســم، إننا سنــزورك قبل ظهر الأحــد مع قريبي رئيس البلدية. سيأتي هو بنا في سيّارته. انتظرنا يا بُنّي. سنحضر لك ما تحب.

سـرّ باسم كثيراً بعد ظهر يوم الجمعـة ذاك. سرّ بأسرة عمّه وبزينـب التي شعر بأنّها ما زالت تميل إليـه وتقدّره. وقد أخبرته خلال جولتهم عـن مدرستها الجديدة وعن رفيقاتها وعن اجتهادها فـي الدرس وحصولها على علامـات جيدة جداً. وقالـت له إنها لا تنسـى الساعـات الكثيرة التـي قضياها يدرسان معـاً أو تقرأ له القصص... ثـم فاجأتـه قائلة له بتودّد: هل عرفـت أخيراً ما هو لـون الهواء؟ ضحك باسم وضحكـت زينب، ثم أضافت: أما زلت تطرح هذا السؤال؟

قـال لهـا: دوماً، ولا بدّ أن أكتشف ذات يوم ما لون الهواء. ثم ضحك.

عندما تهيّأت الأسرة للمغادرة، قال له عمّه:

- هـذه الزيارة ستتكرّر كثيراً وستأتي أنت لقضاء بعض أيام العطل الدراسية عندنا.

في الليل نام باسم بهناءة لم تعكّرها ذكريات القرية. شعر أنّه لـم يبق غريباً في المعهد. أسرة عمّـه لا تقيم بعيداً عنه. وجميعهم سيزورونـه مـن حين الـى آخر، وفي بعضـ أيام العطـل سينام عندهم. شعر باسم بأنّ الطمأنينة التي أفتقدها منذ أن غادر القرية، عادت تلوح في قلبه.

فـي صباح الأحد نهض باسم مبتهجاً، فهو سيلتقي عائلته عند الساعة العاشرة، كما وعده أبوه. لم يشأ باسم أن تشاهده أمّه كما ودّعته في القرية. ارتدى الملابس الجديدة التي أهدته إيّاها أسرة عمّه، وضع قليلاً من العطر، مشّط شعره جيداً، وقال في نفسه: لو لديّ مرآة لوقفت أمامها.

نزل الى صالة الضيوف وقد أحضر معه علبة الحلوى ليستقبل بها أسرته. أعلمه يوسف، كالعادة بقدوم أهله، فوقف بسرعة ووجهه صوب الباب: أهلاً أمي، صرخ للفور عندما سمع وقع خطاهم. أهلاً أبي، أهلاً أحمد وسهيل، أهلاً زهرة. أسرعت أمه تحتضنه بشوق وراحت تبكي، مع أنها وعدت زوجها بأنها لن تدع دمعة تسقط من عينيها. ضمّها باسم بقوّة، وطلب منها أن تكفّ عن البكاء، قائلاً:

- ها أنا بين ذراعيك يا أمي، سعيد بك، فافرحي بابنكِ الذي سيحقق حلمك ويصبح رجلاً.

ضمّ باسم أباه وأشقاءه وقبّلهم بحرارة، وظل يمسك بيد أمّه وجلس بالقرب منها على الكنبة. لم يشأ باسم أن يتركها لحظة، هو يعلم أنّه جهد كثيراً في منع نفسه من البكاء ونجح، لكنّ قلبه كان ينفطر لوعة. لقد اشتاق الى أمّه، اشتاق الى ذراعيها تضمّانه برأفة وحنوّ، اشتاق الى صوتها يخترق روحه، الى خبزها البلديّ والطعام الذي كانت تعدّه له...

مـرّر باسم يده على وجنتي أمــه ومسح دموعها. هدأت الأم ثم قالت:

- اعذرني يا باسم، لقد اشتقت اليك يا بنيّ، أكثر مما تتصوّر.

هنا بدأ الأب في الكلام، سائلاً باسم عن حياته في المعهد، عن دروسه وإقامته، عن المعاملة التي يلقاها، عن الطعام والنوم... سألــه إن كان يواجه صعوبات فــي حياته هنا، إن كان يحتاج الى أي مساعدة...

إفتــرّ ثغر باسم عن ابتسامــة ملؤها الرضا وراح يخبرهم عن حياتــه فــي المعهد، سارداً لهــم تفاصيل هذه الحيــاة. أخبرهم عن الدروســ والصفــوف التي التحق بها، وعــن دروس الانكليزية، أخبرهــم عن المديرة والأساتذة، عن يوسف المرافق الأمين، عن رفاقه وعن اللعب...

كان اللقــاء رائعاً، فرح الجميع بــه، وجلسوا معاً وكأنهم في بيتهم. قدّم باسم لهم الحلوى، وقدّموا له هداياهم، من ثياب وطعام كانت أعدّته أمه له. حضّرت له أمه مناقيش الزعتر وأقراص الكبّة والمعجّنــات التــي يحبّها. وحملت اليه صندوقاً مــن فواكه القرية، وحلويــات بلديــة صنعتها هــي بيدها. وبعد نحــو ساعتين من اللقاء الــودّي الجميل، اقترح باســم عليهم بأن يقوموا بجولة على المعهد والباحــات والملاعــب. كان الطقس بــارداً، فأسرعوا في جولتهم الخارجية. أما داخل المعهد فعرّفهم على الصفوف والمكتبة...

فرحــت به أمه كثيراً عندمــا رأته يمشي بحريّة مثل الآخرين وأعجبــت بتلــك العصــا المعدنية التــي يحملها بيده والتــي بدت لها مختلفــة عــن العصا الخشبية التي كان يستخدمها فــي القرية. سألته

عن هذه العصا، فابتسم وقال:

- هــذه عصا جديدة للمكفوفيــن، يمكنني إغلاقها ووضعها في الحقيبــة. وهي تساعدني كثيــراً في تلمس الطريق وإدراك طبيعتها وأطرافها.

ثــم أغلق باســم العصا أمامهم فبدت أشبــه بقطعة صغيرة، ثم فتحها فعادت الى حجمها السابق.

بعــد الظهر، كان باسم في غرفــة الجلوس عندما جاء صديقه جورج برفقة أبيه ويوسف. دخلوا الغرفة وقال يوسف:

- ها هو صديقك باسم هنا.

حيّا جورج باسم وقال له:

- والدي معي وهو سيصافحك.

اقترب الوالد من باسم وربّت على كتفه وصافحه قائلاً:

- كم أخبرنا عنك جورج وكم يحبّك.

جلس جورج ووالده وراحوا يتحدّثون. قال جورج:

- لقد أمضيت نهاراً جميلاً في بلدتنا، عفواً في مدينتنا البحرية. كان نهــاراً حافلاً، التقيت خلاله رفــاق الطفولة في الحيّ. وأكلت أطيب الطعام مع أسرتي. أطيب الطعام هو الذي تحضره الأم.

قال باسم:

- صحيح، أنا اليوم تناولت طعاماً جلبته لي أمي من القرية. طعام الأم له نكهة خاصة. إنه أطيب طعام.

إستأذن والد جورج وقبّل ابنه وباسم وودّعهما قائلاً:

- أترككمــا الآن، أنتمــا لا تحتاجــان الــى أي توصية. أنتما

راشدان والله يرعاكما.

أخبـر جورج صديقه عـن هذا اليوم الجميـل الذي قضاه في مدينته، المحاذية للشاطئ. قال له:

- ذهبـت الى الكنيسة وشاركـت في قداس الأحد. صلّيت مع المصلّيـن. ما أحوجنا الى الصلاة، يـا صديقي. هكذا علّمتني أمّي منـذ طفولتي. كانـت تأخذني معها دوماً الـى الكنيسة. عندما عدنا الـى البيـت كان رفاقي في الحـي ينتظرونني. هـؤلاء الرفاق لا أنساهم البتة وهم لا ينسونني. جلسنا نتحدّث عن الدروس والمعهد وأخبرونـي الكثير عـن حياتهم. لم نخرج الـى الساحات التي كنا نلعب فيها، فالطقس بارد والمطر كان يتساقط. صحيح يا باسم أننا نعيشـ هنا في جوّ حميم وكأننا عائلة واحدة، لكنّ دفء الأسرة لا يمكن أن تعوّضه أي حياة أخرى مهما كانت جميلة.

قال له باسم:

- إننـي أبادلك هذا الشعور. لا أستطيع أن أصف لك السعادة التـي ساورتني عندما وجدت نفسي قبل ظهر اليوم محاطاً بأسرتي الصغيرة. الأم، هل هناك حنان أقوى من حنان الأم؟

صمت باسم قليلاً ثمّ أضاف:

- اعذرنـي إذا سألتك عن الكنيسة، هل هي مثل الجامع الذي نؤمّه للصلاة؟

قال له جورج:

- اعتقـد أن الكنيسـة تختلف فـي بنائها عن الجامـع كما قال لـي مرّة جارنا أحمـد. إنهما يختلفان في الهندسـة. وقد شرح لي هـذا الاختلاف وأخبرني كيف يصلون في الجامع. أما في الكنيسة

فالصــلاة تختلف، لكــنّ الصلــوات ترتفع الى الله. هكــذا قال لي جارنا وهذا ما اكتشفته لاحقاً. وقال لي أكثر من مرّة إنَّ المسلمين والمسيحييــن هم من أهل الكتاب وحــاول أن يشرح لي، لكنني لم أفهــم جيــداً ماذا يقصد إلا لاحقاً. القــرآن الكريم والإنجيل هما من الكتــب المقدّسة التي أنزلها الله. هذا ما شرحه لنا أستاذ التربية في المعهــد. فالمعهد هــو للجميع، لكلّ أبناء الطوائــف، ولا فرق هنا بيــن تلميذ وآخر. الجميع أخوة، كان يردّد. كم أتمنى أن تسمعني بعضــاً من الآيــات الكريمة التي تحفظها غيبــاً. وأنا أسمعك مقاطع مــن الإنجيل. وأصلاً القرآن الكريــم والإنجيل المقدّس موجودان في المكتبة الصوتية.

كانــت الأيــام تمضــي وباسم يتقدّم فــي دروسه تقدّمــاً باهراً لا سيّمــا فــي اللغــة العربية. كان ذا قدرة فائقة علــى حفظ القواعد العربيــة، نظرياً وتطبيقيــاً. كان مجتهداً في الإعــراب وتصريف الأفعــال وسواهما، لكــنّ كتابة الهمــزة كانت تعصــاه، خصوصاً أنّــه ما زال فــي بداية دروســ «البرايل» أو القــراءة بالأصابع. كان يفهــم موقــع الهمزة وحركتها لكنّه لم يكن قــادراً على تصوّر موقعهــا المتبــدّل ذاك. كان رفاقه في الصفّ يتهيّــأون للتقدّم الى شهــادة «البريفيــه» وكان هو يساعدهم كثيــراً، في الإعراب، كما فــي مواضيــع الإنشــاء التي كانت ترافــق صفّ القــراءة العربية. كان يملــك قــدرة لافتة على تأليــف مواضيع الإنشــاء، يؤلفها في ذهنــه ثم يتلوها على رفاقه. كانــت مخيّلته قادرة على بناء عناصر الموضوع الذي غالباً ما كان يأخذ طابع القصّة. وقد ألّف مواضيع عــدّة نالت رضا أستاذ العربية وهنّأه مرات عليها. وطلب مرّة من

أحـد الموظفين أن يدوّن موضوعـاً له ويطبعه على آلة الكومبيوتر ويعلّقه على لوح الشرف في صالة الجلوس. وهذا اللوح كان يضمّ أسمـاء التلامذة الذين حلّوا في المرتبـة الأولى وصورهم، إضافة الى بعض إنجازاتهم المهمّة في المسابقات المدرسية.

كان باسـم يتحسّـر في نفسه علـى عدم تقدّمه الـى امتحانات شهادة «البريفيه». لقد تأخّر في الالتحاق بالمدرسة والذين يجايلونه عمراً سبقوه في الدراسة. لكنّ هذا الأمر لم يؤثر فيه سلباً، بل زاد مـن رغبته في الدرس ومـن تحدّيه ظروفه الخاصّة هذه. قالت له المديرة مرّة:

- يأتينـا دوماً فتيان في عمرك وغالبـاً ما يرفضون الالتحاق بالصفـوف، فنحوّلهم الى محتـرف الأشغال اليدوية فينجحون. أما أنت فإنّك متحمّس مثل التلامذة الذين التحقوا باكراً بالمعهد وانخرطوا فـي الدراسة، بل إنّـك أشدّ حماسة من الكثيريـن منهم. أنت تحبّ العلـم والمعرفة. أنت تحبّ أن تتطـوّر وأن تتحدّى المرض الذي أصيبـت عيناك بـه. سنكون الى جانبك حتّـى وإن لم تحصل على شهادة رسمية. أنت من التلامذة الذين نتوقع لهم مستقبلاً مشرقاً.

كلام المديـرة هذا أثّـر كثيراً في باسـم وزاده ثقة في نفسه. وقرّر أن يركّز كثيراً على دروس «البرايل» الصعبة والتي تحتاج الى المزيد من الجهد والمثابرة. فهذه الدروس ستؤمّن له الفرصة فـي التقـدّم بين التلامذة. وإذا بات يتقنها جيـداً فإنه لن يحتاج الى أحد ليقرأ له. سيصبح هو قادراً على القراءة وحده. ومن ثمّ يتفرّغ لتعلّـم الطباعـة على الكومبيوتـر مثل الكثيرين مـن التلامذة الذين يكتبـون بأصابعهم مـن دون أن يبصروا الأحرف. وإذا اتقن هذه

الطباعـة فهو سيحقق حلمه بالكتابة، كتابة القصص التي تملأ رأسه والتي لم ينسَ أحداثها وأشخاصها.

كان باسـم يُسـرّ كثيراً في صفوف القـراءة العربية. فالأستاذ كان يقـرأ عليهـم الكثيـر مـن الأشعـار والقصـص والمقطوعات الأدبيـة، كمـا كان يسمّيها. وهو كان يتابعها بشغـف ويسجّلها في رأسـه مثلما كان يفعل عندما كانت زينـب تقرأ له القصص. الآن اختلفت القراءة واختلفت العناوين وأسماء الكتّاب. النصوص نفسها أصبحـت أصعـب وتحتاج الى المزيد من التفكيـر. هذه النصوص تعلّـم التلامذة كيـف عليهـم أن يحسّنوا لغتهم ويحفظـوا المفردات الجميلـة. وهي تعلّمهم أيضاً كيف عليهم أن يكتبوا مواضيع الإنشاء ببساطـة وسلاسـة. وكان الأستاذ يشـرح لهم المفـردات الصعبة والتلامذة يتابعون الدرس معاً على صفحات «البرايل». كان باسم يفاجئ دوماً أستاذ العربية بقدرته على الحفظ وعلى تأليف فروض الإنشاء التي كان يمليها بصوته. ولم ينثنِ الأستاذ عن إيلائه اهتماماً ولكن من غير أن يهمل التلامذة الآخرين بتاتاً. وكان أحياناً يطلب منه الوقوف أمام التلامذة فيطرح عليه أسئلة متعلّقة بالدرس فيجيبه مـن دون أن يرتكـب خطأ. ثم يتوجه الأستاذ الـى التلامذة قائلاً: أرأيتم، رفيقكـم الذي تأخر في الالتحاق بصفّ اللغة العربية قادر على استيعاب الدرس بسهولة.

كان باسم يخجل أمام التلامذة عندما يشيد الأستاذ بقدرته على الحفـظ، ويشعر أنّـه يثير حفيظة رفاقه. لكنه لـم يكن ينبس بكلمة مؤثـراً الصمت. فهو كان يخشى أن يهجره رفاقه وأن يعزلوه فلا يساعدونه في ما يطلب منهم.

لم يمضِ شهر حتى تخطى باسم خوفه من استخدام «البرايل» للقــراءة. كانــت الدروســ صعبة جــداً. فهو للمــرّة الأولى يلمس الحروف التي تعلّمها غيباً. وكيف يلمسها؟ بالنقاط النافرة. لم يكن صعباً تعلّم الأحرف انطلاقاً من أعداد النقاط النافرة، لكنّ الصعوبة تكمن في جمع النقاط التي تمثل الحروف، في كلمات أولاً، ثم في جمل. كانت الطريقة في القراءة هذه صعبة وتتطلّب جهداً وتركيزاً وحفظاً ومهارة في تحريك الأصابع.

راح باسم يتابع الدروس بانتباه شديد، معتمداً ذاكرته وحركة أصابعه. وكان يقضي أوقات الفرص خلال النهار كلّه، منكبّاً على التماريـن، في المكتبة. في البداية وبعــد أسبوع من الدرس تمكّن مــن حفــظ أرقام الحــروف. وبات يكــرّر هذه الأرقــام في ذهنه محــرّكاً أصابعــه وفق نظامها. كان يقول علــى سبيل المثل: «ظ» فيعلــم للفور أنّ هذا الحــرف هو من ستّ نقاط، ثم يحرّك أصابعه بحسب نظام النقاط. ثم يقول: «أ» فيعلم أن هذا الحرف يمثله الرقم واحد. ثم «ب» الذي من رقمين: واحد واثنان. يقول: «د» ويعلم أنّه من الأرقام: واحد وأربعة وخمسة... وهكذا دواليك.

تمكّــن باسم مــن حفظ الأرقام - الحــروف وأصبح كلّما أمرّ أصابعه على الصفحة أدرك بسهولة ما هي الأحرف. إلاّ أنّ انتقاله الــى مرحلة جمــعِ الأحرف عبر أرقامها تطلّب جهــداً ووقتاً. ظلّ يثابــر على تعلّم الكلمــات، في الصف كما في أوقات العطلة، حتى

تمكّـن من إدراك الكثير من المفردات. بـدأ يتعلّم أحرف الجرّ ثمّ سائر الكلمات الصغيرة التي لها عمل في الجملة: إنّ، ليس، كان، لكـنّ، هيّا، وسواها. ثمّ انتقل الى الأفعـال الثلاثية: جلس، أكل، نـام، عطش، صرخ... ثمّ الى الأفعـال الرباعية، ثم الى سائر الكلمات، مذكرة ومؤنثة، في المفرد والجمع.

أمضـى باسـم وقتـاً يتمـرّن على قـراءة المفـردات، مفردة مفـردة. وبعـد أسبوعين صار على يقين من أنـه قادر على قراءة الكلمات. لكنّه ظل يحتاج الى المزيد من الوقت والتمرين. فالنظام الـذي تتوزّع عبره الأرقـام - الأحرف والأرقام - الكلمات ليس بسيطـاً، بل هو مركّب. والأصابـع ليست هي العيون التي ترى، حتى وإن كانت رشيقة الحركة.

كان الأستـاذ الـذي يشرف علـى صف «البرايـل» مسروراً بحماسـة باسم وسرعة تلقّيه هذه الطريقة غير المألوفة في القراءة. وقد لفته في باسم تفاعله الشديد مع هذه القراءة التي وجد فيها حلمه المنشود.

بعـد شهرين بات باسم يجيد قـراءة الجمل، وكان يلزمه فقط أن يتمـرّن أكثـر ليصبح أسـرع في القراءة. وكـم كان يحلو له، عندمـا يكـون وحيداً في المكتبة أن يقرأ بصـوت عالٍ وكأنّ أمامه جمهـور يُصغي إليه، مقلّـداً قليلاً الأصوات التـي يسمعها تقرأ في الكتـب المسموعة أو الأسطوانات المسجّلـة. ولم يكن باسم يخطئ فـي اللفـظ ولا في الحركات إلاّ نادراً. وهذا مـا هنّأه عليه الأستاذ يوماً، عندما طلب منه أن يقرأ أمام التلامذة نصّاً أدبياً.

كان مـن الطبيعي أن تتطلب الإجادة التامة في القراءة بعض

الوقـت، فأنْ تُقرأ الكلمات بالأصابع أصعـب من أن تُقرأ بالعيون التـي تبصر أشكالها وحركاتهـا وتتابعها كلمة إثر كلمة. ولعلّ أكثر ما سُرّ به باسم هو أنّه أصبح قارئاً، قارئاً مستقلاً لا يحتاج الى أحد يقرأ له. صحيح أنّ كتب «البرايل» لم تكن تضمّ كلّ أنواع الكتب، لكنّ مـا كان متوافراً في المعهد يكفي باسم ويشبع فضوله الأدبي. وكانت الكتب المسموعة تكمّل ما كان ينقص مكتبة «البرايل».

شعـر باسم بسعادة كبيرة بعدما أنجـز هذه المهمة الصعبة في ثلاثـة أشهـر. اتصـل بأهله يُعلمهـم بنجاحه في الامتحـان الأخير لقـراءة «البرايـل»، وكان هـو أصلاً شرح لهم هـذه الطريقة في القـراءة ورافقهم مرّة، عندما كانوا يزورونه خلال فصل الشتاء، الـى غرفـة القـراءة ليطلعهم على الكتـب هذه. وقد لمسهـا شقيقاه وأصيبـا بالدهشة إزاء هذه النقاط النافـرة التي قال لهما إنها بمثابة أحـرف. لكنّ حسرة خفية كانت تعكّر سعادة باسم، فنجاحه الكبير فـي امتحان قـراءة «البرايل» لن يتعدّى جـدران المعهد، فهو لن يتمكّن من الحصول على شهادة البريفيه مثل رفاقه.

كانت قراءة «البرايل» حدثاً كبيراً في حياة باسم. لقد وضعت هـذه القراءة حداً للشعـور الغامض الذي كان يعتريه، وهو شعور بالإحبـاط كان يسببـه خوفه من المستقبـل. كان يسأل نفسه دوماً: هـل سأبقى أسير فقداني البصر؟ هل سأظـل أقضي الأيام من غير أن أعمـل وأنتج؟ هـل سأبقى عالّة على الآخرين، حتى وإن كانوا أقرب الناس إليّ؟

كان باسـم، على رغم صغر سنّه، يشعـر أنّ عليه أن يكون مسـؤولاً عـن نفسه. هـذا ما علّمه إيـاه فقدان البصـر. كان يفكّر

دوماً بنفسه وبمستقبله، وكانت تساوره الهموم وكأنه شاب راشد. لعلهـا الشخصية التي يتميّز بها هـذا الفتى الذي سيصبح في الرابعة عشـرة خلال شهرين. ومنذ أن غادر القريـة شعر أنّه كبر سنتين لا سنـة واحـدة. فالمعهد أمّن له الفرصة لينهض بسرعة من حزنه وإحباطه.

كان باسم معجباً جداً بالفتى الضرير الذي يُدعى لويس برايل وهـو الذي اختـرع طريقة القـراءة بالنقاط النافـرة والتي سمّيت باسمـه. إنّه يدين لـه بالكثير. سمع الأستاذ يحدّثهـم عنه أكثر من مـرّة، عن شخصيته وعبقريته. وقد وعده الأستاذ بأن يأتيه بكتيّب عنـه مطبوع بطريقة «البرايل» عساه يقرأ سيرته، شرط أن ينهي دروسه بنجاح.

وعندمـا أتـاه الأستاذ بالكتاب الصغيـر راح يقرأه ولم يغادر المكتبة حتى أنهاه. وقد ازداد تعلّقاً بهذا الفتى الفرنسي بعدما تعرّف الى سيرته المملوءة بالطموح والأمل والتحدّي. وقال لنفسه: ليتني أتمكّن يوماً من كتابة موضوع عنه!

ذات صبـاح استيقـظ باسم من نومه وكلّـه فرح وحبور. لقد أبصـر حلماً خيّل لـه فيه أنه يكتب على آلـة الكومبيوتر. خيّل إليه أنّه جالس أمام هذه الآلة وبالقرب منه زينب. كان يكتب من غير أن يعلم ماذا يكتب. كانت أصابعه تمرّ على المفاتيح بخفة شديدة.

عندمـا نهضـ مـن الفراش قـال باسـم: سأتعلّـم الكتابة على الكومبيوتـر، يجب ألاّ أتلكأ. لويس برايل كان في الخامسة عشرة من عمره عندما باشر في العمل على طريقته في القراءة.

فاتـح باسم المديرة برغبته في تعلّـم الكتابة على الكومبيوتر،

فرحّبت كثيراً، لكنّها قالت له إن صف الكومبيوتر يكاد يكون مكتملاً، ووعدته بأن تجد له حصّة في الصفّ. وقالت له: لقد برهنت عن ذكاء وقدرة فائقة على الحفظ والتعلّم والتكيف مع الدروس. وأعتقد أنّك ستتعلّم الكتابة على الكومبيوتر بسرعة، فأنت صبور ومجتهد ومثابر على الدرس.

عندما بدأ باسم الدرس الأول في الكتابة على الكومبيوتر شعر بأن تحريك الأصابع على المفاتيح ليس سهلاً. قال الأستاذ للتلامذة الذين كانوا معه وهم ستّة، إنّ الكتابة هذه لا تتطلب أصلاً الكثير من النظر إلى المفاتيح. حتى المبصرون الذين يتعلّمون هذه الكتابة بحسب الأصول، يجب ألاّ ينظروا إلى الأحرف بأعينهم بل عليهم أن يستخدموا أصابعهم العشرة مدركين الأحرف بحسب النظام المعتمد في الكتابة. هكذا تستطيعون أن تكتبوا بأصابعكم فقط، وأنا أتولّى المراقبة والتصحيح.

كانت القاعدة التي انطلق منها باسم ورفاقه تركّز على صفين متعاكسين من الأحرف: ك. م. ن. ت. ا، ثم: ش س ي ب ل. راح التلامذة يتمرّنون بأصابعهم على هذه الأحرف مدركين أن هذه الأحرف العشرة توازي عدد أصابع اليدين. كان عليهم في البداية أن يركّزوا على هذه الأحرف ويكتبوها ويكرّروا كتابتها طوال أيام.

حفظ باسم هذه الأحرف وبات يكتبها بسهولة. وكان على الأستاذ أن ينتقل معه الى المرحلة الثانية التي تقتضي تحريك الأصابع على المفاتيح صعوداً ثم نزولاً. واجه باسم صعوبة في البداية، فتحريك الأصابع يجب أن يكون دقيقاً، وأيّ خطأ في

التحريك يؤدي الى خطأ في الحرف.

في الأسبوع الأول تمكّن باسم من تحريك الأصابع بحسب نظام الحروف، صعوداً ونزولاً، وكانت أصابعه العشر تستقر على خطّ الأحرف الوسطى ومنها تنطلق الى سائر الأحرف. ثمّ جاءت مرحلة كتابة الكلمات وهي ليست بالسهلة أيضاً ثم تبعتها مرحلة كتابة الجمل ووضع النقاط والفواصل وأحرف التعجب والاستفهام وسواها، في مواضعها الصحيحة.

مضى شهران وباسم يواظب على التمارين في الصف. الأستاذ يقرأ لهم وهم يكتبون. وقد تمكّن باسم من حفظ الكثير من الجمل التي يجب اعتمادها في التمرين، فكان يبقى في غرفة الكومبيوتر بعد أن يخرج التلامذة ويقضي نحو ساعة منكبّاً على الكتابة.

كان أمامه القليل من الوقت كي يتقن هذه الكتابة إتقاناً تامّاً، وبالأصابع العشر مثل كلّ الذين يحترفون الكتابة على الكومبيوتر. المشكلة الوحيدة التي يواجهها عندما يتمرّن على الكتابة وحيداً هو عدم وجود مَن يقرأ له كي يكتب. لكنّه سرعان ما توصّل الى حلّ مثالي. أصبح يجيء بكتاب مسموع أي الكتاب - الأسطوانة مع آلته، فيديرها مستمعاً الى النصوص وكاتباً إياها في آن واحد. صحيح أنّه كان يُخفق أحياناً في مواكبة الجمل التي يلفظها الصوت في الأسطوانة، لكنّه ما كان ليتوقف لحظة عن الكتابة حتى وإن فاتته بعض الكلمات أو الجمل. فالهدف هنا هو أن يصبح سريعاً في الكتابة وفي تحريك أصابعه على المفاتيح كلّها. وكانت حسرة تعتمل في قلبه، فهو لم يكن قادراً على رؤية الشاشة المضاءة

أمامـه ولا على قراءة الأحرف والكلمات التي كان يطبعها. وكان الأستـاذ حدّثهم بدهشة عن هذه الشاشـة الفضّية البديعة التي ترتسم عليهـا الكلمات والجمل. قال باسم ذات صبـاح: عندما سأتقن هذه الكتابة اتقان المحترفين، سأكتب قصّة لويس برايل.

كان باسم معجباً كلّ الإعجاب بهذا الشاب الذي اخترع قراءة «البرايل». كان يجد فيه مثالاً للشاب الضرير المتفوّق الذي سجّل اختراعـاً يفيد المكفوفين كثيراً، ويمثّل الجسـر الذي يجمعهم بعالم المعرفـة. كان يتمنـى لو أنه قادر على رؤيـة صورته. وصفه له الأستـاذ انطلاقاً مـن الصورة شبه الوحيدة لـه ويبدو فيها مغمض العينيـن. وكان يسأل باسم نفسه: لماذا كانت عيناه مغمضتين؟ ولم يلـقَ جوابـاً مرّة. ثم ظنّ أن إغماضـة عينيه تعود الى الثقب الذي أحدثـه المخزر في إحدى العينين وفقأها، كما ورد في سيرته، ثم لم تلبث العين الأخرى أن أصيبت بالتهاب حادّ أفقدها البصر. كان لويـس في الثالثة من عمره عندما وقع له هذا الحادث في محترف أبيـه الذي يعمل في صناعة السروج والأحزمة والحقائب الجلدية. كان لويس يثقب أحد الأحزمة عندما طعن عينه بالخطأ. ظلّ حتى العاشـرة برفقة أبيه في المحترف، يتعلّـم المهن الصغيرة ويتمرّن علـى استخدام يديه ببراعة. ثم التحق بمعهد المكفوفين اليافعين في باريس، العاصمة الفرنسيـة. وكان المعهد فقيراً جداً وعاجزاً عن تلبية حاجات التلامذة الذين كانوا يكتفون أحياناً كثيرة بالخبز والماء قوتـاً يوميـاً لهم. لكنّ لويـس كان متفوّقاً رغم هـذا الجوّ البائس، وبـرع خصوصاً في الموسيقى. في هذا المعهد كانت تُعتمد طريقة للقـراءة بحروف الأبجدية النافرة وهي تقوم على طباعة الحروف

بأشكالها العادية على ورق سميك، ولكن بحجم كبير، وليس على التلميـذ إلاّ أن يلمسهـا بأصابعه ليقرأها. لكنّ هـذه الطريقة لم تكن مؤاتيـة للتلامذة ولم تلبِّ حاجتهـم الى القراءة. وكان المعهد يضم أربعة عشر كتاباً فقط، وقد قرأها لويس كلّها.

كان باسـم يستعيـد قصّـة لويـس برايـل في ذهنه، مـرّة تلو أخـرى، وكأنّـه يتمرّن علـى كتابتها كقصة للصغـار. وكان يتألم كثيراً للتلامـذة الفرنسيين المكفوفين أولئك الذين كانوا يعيشون في حـال من الفقر المدقـع. وكلّما استرجع هذه السيـرة يزداد إعجاباً بهذا الفتى الذي كان في الخامسة عشرة من عمره عندما تمكّن من اختراع الطريقة الفريدة في القراءة.

كان باسم يتوقّف قليلاً في سرد القصّة لنفسه ثمّ يواصل السرد. فهـو بات يحفظ كلّ التفاصيل التـي سمعها وأصغى إليها أو قرأها، وهـي كانت قليلة. ومنها تلـك الزيارة الحاسمة التي قام بها ضابط فرنسـيّ لمعهـد المكفوفين الـذي كان يعيش فيه لويـس. ففي عام 1821 التقى لويس بهذا الضابط الذي أبلغه بأنّه ابتكر طريقة للكتابة قائمة على الشيفرة، وعبرها يستطيع الجنود الفرنسيون المقاومون للاحتلال الألماني أن يتبادلوا الرسائل في الأمور السرّية ليلاً، فإذا وقعـت بين أيدي الأعداء فهم لـن يتمكّنوا من فكّها. والطريقة هذه تقوم على إبراز أشكال من النقاط على ورق سميك، وكان أقصى عدد النقاط يبلغ اثنتي عشرة نقطة ولكلّ شكل دلالته اللغوية.

هنـا كان يفاجأ باسم بـذكاء لويس الذي انطلق من هذه النقاط الاثنتي عشرة وخفضها بعدما واجه صعوبة في استخدامها، وراح يعمل على ابتداع طريقة جديدة لم يكن يعلم أنها ستحمل اسمه لاحقاً،

وستكـون أفضل طريقــة للقراءة بالأصابع. أنهــى لويس اختراعه عام 1824. ثمّ راح يوسّع طريقته لتشمل بعض الرموز الرياضية والموسيقيــة. وفــي عــام 1829 نشــر أول كتاب بهـذه الطريقة، طريقــة «برايل». بعد نشر هــذا الكتاب الذي اعتبر نموذجاً تطبيقياً انتقــل لويس الى التدريس فــي المعهد، وراح يدرّس التلامذة هذه الطريقــة بحماسة وحبور. لكنّ الدولة لم تقـرّ هذه الطريقة رسمياً إلا بعــد عامين على رحيل لويــس، فانتشرت، ومعها ذاع اسمه. وفــي عــام 1954 أقيم احتفال كبير له فــي باريس ونقل رفاته الى «البانتيـون» وهو مثوى الخالدين الفرنسييــن الذين خدموا وطنهم والإنسانيــة جمعــاء. وبات اسمه الآن محفــوراً بالقرب من أسماء العباقرة من علماء ومفكرين.

ومــع أنّ باســم كان يشعر بالفرح عندما يصل الى خاتمة هذه السيرة، فكان الحزن يعتريه من جرّاء الفقر الذي عاش فيه لويس برايــل، هذا المختــرع العظيم. ولم يكن ينسى أن لويس الذي ولد فــي عزّ البرد في الرابــع من كانون الثاني (ينايـر) 1809، مات أيضــاً في عزّ البرد في السادس مــن كانون الثاني (يناير) 1852. وكـم كان يتحسّــر على وفاة لويس فــي أوج شبابه، فهو رحل في الثالثة والأربعين من عمره.

كان باسم ينهي القصة هنا، وقد حفظها من كثرة ما كرّرها في ذهنــه، ولم يبق أمامــه إلا أن يكتبها على الكومبيوتر. وكان يردّد في نفسه أنّ هذا الأمر سيتمّ يوماً.

إلا أنّ مــا أخبــره إياه الأستاذ لم ينتــهِ هنا، فهو أفاده بأن نقل طريقة «برايل» الى العربية تمّت على يد محمد الأنسي في منتصف

القرن التاسع عشر، ثم راحت الطريقة تتطوّر عربياً وتنتشر حتّى اعتُمـدت رسميـاً في سائـر المدارسـ والمعاهد العربيـة الخاصة بالمكفوفين. وهذا ما كان يلفت انتباه باسم كثيراً.

عندما بدأ باسم يزور المكتبة بقسميها، المسموع و»البرايل»، وجـد نفسه غريبـاً بين الكتب التي تضمّها. هنـاك الكتب المدرسية التـي تحوي برامج الدروس وما يدور حولها، وهناك الكتب التي أُدرجت في خانة «المطالعة». أما الكتب الانكليزية فلم يبحث فيها. فهو لا يزال ضعيفاً في الانكليزية والدروس التي يتلقاها مع التلامذة المبتدئين لا تزال في البدايات. لكنّه كان يعد نفسه بتعلم هذه اللغة. لم يكن يهمّ باسم في المكتبة إلا كتب المطالعة، واستطاع أن يطّلع على عناوينها المثبتة بحروف «البرايل». لكنه احتار كيف عليه أن يبدأ وماذا يختار. فرفاقه في الدروس العربية كانوا ملزمين بقراءة كتب معيّنة تكمّل دروسهم تلك. أما هو فكان يشعر بأنّه يستطيع أن يتخطّاهم بسهولة لأنّه كان فعلاً متفوّقاً عليهم بالعربية.

تذكّـر باسم عندما وقف أمـام المكتبة «قصص ألف ليلة وليلة للصغـار». كانـت ابنـة عمّه زينب قد قـرأت له قصّتيـن من هذه القصص، فحفظهما جيداً بعدما طلب من زينب أن تعيد له قراءتهما مثنى وثلاث. هاتان القصّتان ما زالتا في ذاكرته، الأولى عنوانها «الشاطـر حسـن»، والثانية «عـلاء الدين والمصبـاح العجيب». وكانـت وعدتـه زينب بأنّهـا ستبحث عن قصص أخـرى في هذه السلسلة لكنّها لم تجد سوى هاتين. كان يسأل في نفسه: ترى ما هي «قصص ألف ليلة وليلة للصغار»؟ وظلّ هذا السؤال بلا جواب.

راح باسم يبحث في اللائحة عن هذه القصص وكانت مفاجأته

كبيـرة عندما وجـد عناوين منها. حتّى القصّتـان اللتان قرأتهما له زينـب سابقـاً موجودتان هنا، فـي الزاوية المخصصـة للتلامذة، الصغار والفتيان. قال: لقد أصبحت فتى، لكنّني سأعيد قراءة هاتين القصّتيـن وسأقرأ ما توافر من هذه السلسلة. كان وقوعه على هذه القصص أشبه بحدث سعيد في حياته هناك. وسرعان ما فتح قصّة «الشاطـر حسن» التي أحبّها كثيـراً، أكثر من معظم القصص التي كانت تقرأها له زينب، وراح يقرأها من جديد ودفعة واحدة. كان باسم يتخيل نفسه ذلك الفتى الفقير الذي يُدعى حسن ويعمل صيّاداً. كان معجباً به كثيراً. وكم ساعدته زينب في وصف التفاصيل التي تحفـل بهـا القصّة كـي يتمكن من الإحاطـة بهـا. كان يحاول أن يتخيّـل كيف التقى حسن الفتاة الحسناء علـى الشاطئ وكيف تبادلا النظـرات... وتألم معه عندما اختفـت الفتاة فلم يعد يراها وأحسّ أنّ حياتـه أمسـت ناقصة. كان يتصوّر كيف التقـى حسن بعد أيام الرجـل الذي كان يرافق الفتاة، فكلّمه ودعاه لزيارة قصر الملك. فوجـئ حسن بهذه الدعـوة الموجّهة إليه هو الفقيـر، لزيارة الفتاة التـي لم يكن يعلم أنها أميرة وابنـة الملك. كانت الأميرة الصغيرة مريضـة، نزيلـة الفراش، وقد نصح الأطباء بـأن تقوم برحلة في البحـر كـي تتمكّن من الشفـاء. يأخذها حسن بطلـب من الملك في رحلـة بحرية ويسرد لها الكثير من الحكايات التي أعجبتها وجعلتها تُشفـى من مرضها. تكتشف الأميرة أنهـا تحبّ حسن منذ أن رأته للمـرّة الأولى على الشاطـئ، وتطلب من أبيها الملك، بعد عودتها مـن الرحلة متعافيـة، أن يسمح لها بالزواج منه. يرفض الملك ثمّ يوافق على الزواج مشترطاً على حسن أن يأتيه بدرّة ثمينة ونادرة

لا مثيـل لها في البلاد. حزن حسن، فهو لا يملك مالا كي يشتري درّة ثمينـة، لكنّـه لـم يفقد الأمل. فـي أحد الأيام عـاد حسن من الصيـد بسمكة واحدة لم يصطد سواها. وعندما راح يغسلها تكلّمت السمكة وقالت له إنّ في داخلها جوهرة ثمينة. وما كان على حسن إلا أن يُخـرج الجوهـرة من داخل السمكة، فـإذا بها درّة نادرة، رائعـة الشكل واللـون. حمل حسن الدرّة الـى الملك، فلم تصدّق عينـا الملـك ما يبصر وصرخ: إنها أجمل درّة شاهدتها في حياتي. ووافـق الملك على أن يكـون حسن زوج ابنته الأميرة، فزوّجهما وعاشا حياة سعيدة.

عندمـا أنهـى باسم قراءة هذه القصّة التي لـم يملّ منها، رفع وجهـه وصمت. ومـع أنّه كان يحفظها غيباً، فهـو فرح كثيراً بها وكأنّـه يقرأهـا للمرّة الأولى. كان يجد في هـذه القصّة حافزاً على الأمل وكان يرجو أن ييسر الله أمره ويوفّقه في دروسه وبخاصة باللغـة العربيـة. وكان يعجبه في هذه القصّة الحـبّ البريء الذي كان يكنّه حسن والأميرة بعضهما لبعض.

أمـا القصّة الثانية التي قرأها من هذه «القصص» فهي «علاء الدين والمصباح العجيب»، لكنّه كان يحبّها أقلَّ من الأولى. كانت تعجبـه تلك الصخرة التـي تتحرّك وتنفتح علـى كهف، فالصخور التي كان يلامسها بيديه في قريته كانت قاسية وصلبة. وكان معجباً أيضـاً بالخاتـم السحري والمصباح والمارد الـذي يخرج منه كلّما فركـه علاء الدين بيديـه... شرحت له زينب ما هو المارد، لكنّه لم يتمكّن كثيراً من إدراكه. فمن هو هذا الرجل الطويل القامة الذي يخرج من مصباح يشبه القنديل الذي يملكونه في البيت والذي لمسه

وحمله مرات عدة؟

تذكّر باسم، عندما وضع رأسه في الليل على المخدّة القصص التـي قرأته لها زينـب، ابنة عمه، التي تعلّم منهـا حبّ المطالعة، علـى عكس شقيقيه وأبنـاء عمّه الذين ما كانـوا يطالعون القصص كثيـراً. تذكّر عناوين القصص التي قرأتها له والأبطال والأحداث السـارّة التـي تجري فيها. لـم ينسَ تلك القصـص بتاتاً، وكان ما إنْ يستعيـدَ العنوان حتـى يتذكّر القصّة... «الفراشـة البيضاء»، «شجرة الحلم»، «البستاني والعصفور»، «منديل جدّتي»، «حمار جارنا»، «الكلب الوفي»، «الفتاة العمياء» وسواها... وما أكثرها تلـك القصص التـي قرأتها له قبل أن يلتحـق بمدرسة القرية. ولا يـزال يذكـر كيف تأثـر بقصة «الفتـاة العمياء» التـي كانت تغزل الصـوف والتي استطاعـت ذات صباح أن تفتح عينيها عندما دخل النور غرفتها وراحت تبصر.

بعدمـا التحـق باسـم بمدرسة القريـة بدأت القصـص تختلف وتصبح أقل طفولية. يذكر كيف أحب قصّة «فتح الأندلس» وكيف أُعجـب ببطلها طارق بن زياد، وكم طـرح من أسئلة على زينب ليفهـم مجرى الأحـداث. قرأت له ابنة عمّه أيضـاً قصص الأنبياء في صيغة خاصّة بالصغار. وكان يصغي الى هذه القصص إصغاء عميقـاً كما أشار له أبوه. قرأت لـه أيضاً قصة «أصحاب الفيل» و «أصحـاب الجنـة»... إضافة الى كتب تخبر عـن الشمس والقمر والنجوم والجبال والغابات وعن الحيوانات الأليفة والمفترسة... وكان يعجـز في أحيان عن تصوّر ما تصف له من عناصر الكون والطبيعة، لكنّه كان يسرّ لأنه يحبّ القراءة التي كانت تملأ الفراغ

فـي حياته. وكلّما انتهى من الاستماع الى قصّة كان يعيشها أياماً، يستعيدها بذاكرته وكأنّه يُعيد سردها لنفسه.

عندما عـاد باسـم الـى مكتبـة المعهـد، راح يختـار الكتب والروايـات التي تناسب عمره وثقافته التي حصّلها باجتهاده. وقع علـى سلسلة من الروايات الصغيـرة، العربية منها والمترجمة الى العربية. لم يكـن مسموحاً للتلامذة أن يستعيروا الكتب ويخرجوها مـن قاعـة المكتبة. فالقراءة يجـب أن تتمّ في القاعـة، خوفاً على الكتـب نفسها مـن الإضاعة أو التمزّق. فكتـب «البرايل» والكتب المسموعة لم تكن متوافرة كثيراً، وكلفتها أغلى من الكتب الورقية.

هكـذا كان باسم يقـرأ في المكتبة ويقضي فيهـا ساعات جميلة جداً. فالكتب، كانت نافذته التي يطلّ منها على العالم، العالم الذي لا يعرفه بعينيه، إنّما بحواسه الأخرى، السمع واللمس والشمّ... كانـت القراءة تساعـده على التعرّف الى كلّ مـا يحيط به، وعلى التكيّف مع حال فقدان البصر.

أمضى باسم فصل الشتاء يتعلّم ويقرأ، وخطا خطوة كبيرة في درس الكومبيوتر، وكانت فقط تنقصـه السرعة في الكتابة عليه، خصوصـاً إذا حاول كتابـة موضوع إنشاء أو قصّـة من القصص التي يحفظها. لكنّه لم يملّ الجلوس إلى هذه الآلة التي كان يعتبرها مـن أهمّ الاختراعات. فهي ستسمح له أن يكتب وأن يحقق حلمه. وكان أساتذتـه في كلّ الصفوف التي يتابعها يشجعونه ويقدّمون له مـا يحتاج إليه. يشرحون له، يناقشونه، يستمعون إليه. فهم كانوا يتوقعـون لـه مستقبلاً باهراً فـي اللغة العربية. فاللـه منحه موهبة فريدة في تلقي هذه اللغة، وفي الكتابة بها.

كان باسـم يتطـوّر بسرعة، فالجهد الـذي يبذله يتخطى جهد رفاقه ضعفين أو ثلاثة. كان يشعر دوماً أنّه تأخر عنهم وأنّه أضاع الكثيـر مـن الوقت، ولم يكن عليـه إلاّ أن يعوّض مـا فات. كان يكتفي في ساعات الفرص، بالتجوّل في الملعب، بغية الحفاظ على ليونـة حركته. وكان في صفّ الرياضـة، يتابع التمارين الخاصّة بالمكفوفيـن التي كان يشرف عليها أستاذ الرياضة. كانت التمارين عبـارة عن حـركات بالأيدي والأقـدام والسيقان، كمـا بالانحناء والنهوض... وكان يقول لهم الأستاذ إن التلامذة الجدد سيتعلّمون السباحة في الحوض المائي عندما يدفأ الطقس، وإنّ الأقوياء منهم سيجرون تمارين على لعبة «غول بيل». وكان يخبرهم عن رفاق لهـم سبقوهم حققوا أرقاماً عالية في بعض المباريات الرياضية، لا سيما الركض.

كانت أسرة باسم تزوره باستمرار وتأتيه بما يحتاج إليه من ثياب على اختلاف أنواعها ومن أحذية، إضافة الى مأكولات كانت أمه تحضّرها له. وكانت كلّما زارته تسأله: هل تأكل جيداً يا بُنيّ؟ أرني جسمك، هل هزلت؟ ثم تطمئنّ الى أنّه لم يهزل ويطمئنها هو بدوره قائلاً لها إن الطعام جيّد هنا، والتلامذة ليسوا محرومين من شيء. فكانت تفرح وتضمّه الى صدرها. وكان باسم يتحيّن زيارة أهله ليتنزه مع شقيقيه أحمد وسهيل وشقيقته زهرة في الحديقة والملاعب، إذا كان الطقس جيداً ولم تمطر السماء. وكان يسألهم عن دروسهم وألعابهم وعن القرية والرفاق هناك.

أما أسرة عمه عباس، فكانت تزوره أيضاً، كلّما سنحت لها الفرصة. وكان يفرح كثيراً بابنة عمّه زينب ويسألها عن دروسها ومطالعتها الكتب. وكم كان يُسرّ عندما تخبره أنها متفوّقة في صفها وعليها أن تتهيأ السنة المقبلة لتقديم الامتحان الرسمي للشهادة المتوسّطة الأولى أو «البريفيه». كان باسم يغصّ بالسرّ متمنياً لو أنّه كان مثلها، فهي تكبره عشرة أشهر، لكنها تسبقه كثيراً في الدروس، جرّاء السنوات التي قضاها في القرية قبل أن يلتحق بالمعهد. قالت له زينب مرّة:

– ما أجمل تلك الأيام التي كنت أقرأ القصص لي ولك. هل ما زلت تقرأ الآن؟

– أجل إنني أقرأ باستمرار على رغم عدم توافر الكتب

المسموعة وكتب «البرايل» بوفرة. هذه الكتب، كما تعرفين، قليلة.

– هل ما زلت مجتهداً في اللغة العربية؟

– أجل، إنّني أحببت كثيراً القواعد ومواضيع الإنشاء. ونجحت في امتحانات اللغة العربية بتفوّق، ولكن من خارج الصف. فأنا تلميذ مستمع فقط، كما قالو لي.

– ستنجح في حياتك يا ابن عمّي، وأنا سأظلّ أساعدك، ولو كنت بعيدة عنك.

– التلامذة يتابعون الدروس الأخرى التي يتطلّبها المنهاج الدراسيّ، وأنا لم أستطع أن أواكبهم فيها، مثل الجغرافيا والتاريخ والرياضيّات واللغة الانكليزية وسواها.

– المهم أنك تفوّقت باللغة العربية.

– لقد تعلّمت بسرعة قراءة «البرايل» وهنّأني الأساتذة، وكذلك في الطباعة على الكومبيوتر. والآن تنقصني بعض التمارين كي أصبح محترفاً في هذه الطباعة.

– نحن في المدرسة يعلّموننا الطباعة على الكومبيوتر، بالعربية والانكليزية. ونحتاج الى المزيد من الجهد والوقت كي نتمكّن من الكتابة الكاملة.

تذكّرت زينب أمراً كانت تريد أن تخبر به باسم، فقالت:

– نسيت أن أقول لك إنّ الأستاذ الذي يعلّمنا العربية قال لنا أخيراً إنّ لديه كتباً صوتية، جاء بها من دولة عربية كان يعلّم فيها. فسألتُه إن كان في إمكاني أنْ أستعيرها، فقال إنّه سينسخ لي من بعضها نسخات أحتفظ بها. لم أخبره عنك. فهو قال لي

إنّ القصص المقروءة في الأسطوانات تعلّم التلامذة حُسْنَ اللفظ واتقان القراءة وعدم ارتكاب الأخطاء. عندما يجلب لي هذه النسخ سآتي بها إليك للفور. انتظرني.

بعد بضعة أيام زاره عمّه عباس وحيداً في الساعة السادسة مساء. كان يحمل إليه ثلاث أسطوانات، وقد أصرّت زينب عليه أن يسلّمه إياها في اليوم نفسه. لم يدم اللقاء طويلاً، قبّله عمّه وذهب. ارتسمت ابتسامة بارقة على محيّا باسم وضمّ الكتب المسموعة الى صدره.

لم تكد تحلّ الساعة الثامنة صباحاً حتى مضى باسم الى غرفة المكتبة. كان على أحرّ من الجمر طوال الليل، ينتظر بداية النهار ليستمع إلى الكتب الثلاثة ويعلم ماذا تضمّ. لكنّه قبل أن يباشر في وضع السمّاعات على أذنيه، أخبر المسؤولة عن المكتبة بأمر هذه الكتب وقال لها إنه سيهديها للمكتبة ولن يحتفظ بها لنفسه. شكرته بحرارة وقالت له: هذه بادرة كريمة منك. والكتب أصلاً هي لك كما لرفاقك جميعاً. المكتبة مكتبتكم.

أدار باسم الأسطوانة الأولى فإذا هي تضمّ مختارات من أدب الصغار، كما أفاد الصوت المسجّل. وهذه المختارات هي عبارة عن قصص وقصائد كتبها أدباء وشعراء من كافة أقطار العالم العربي. أما الثانية فكانت مجموعة قصص من الأدب العالمي وقد عرّبها أدباء متخصصون بأدب الصغار. الأسطوانة الثالثة كانت المفاجأة الأجمل: «قصص من التراث العربي» وتضمّ قصصاً من «ألف ليلة وليلة» و «كليلة ودمنة» و «حكايات جحا»، إضافة الى «سير أبطال من التاريخ العربي». كان فرحه كبيراً بهذه الأسطوانة

كما بالأسطوانتين الأخريين. وفوجئ بقدرة هذه الأسطوانات على احتــواء هذا العدد الكبيــر من القصص والأشعار. وكان قراره أن يبــدأ بالاستماع الى الاسطوانة الثالثة التــي تضمّ قصصاً من «ألف ليلــة وليلــة» التي كانت بهرته منهــا قصّتان لا ينساهمــا: «الشاطر حسن» و «علاء الدين والمصباح العجيب».

قبل أن يباشر في الاستماع الى الاسطوانة الثالثة، سمع باسم صوت صديقه جورج قادماً، فناداه للفور، داعياً إياه الى مشاركته في الاستماع الى هذه القصص، التي يحبّها كما قال له مرّة.

كان جــورج أحــد أعــزّ أصدقــاء باســم. كانا يمشيــان معاً، يجلســان في الحديقة يتحدّثــان. وكانا يقرآن معاً في غرفة المكتبة. ويتناولان معاً الغداء والعشاء. لا يدري باسم ولا جورج ما الذي جمــع بينهما، مــع أن جورج هو أقدم من باسم فــي المعهد وأكبر منه بعام. شعر جورج بأنّ باسم يشبهه، فهو ابن بلدة بحرية بعيدة فــي الشمال، وعادات أهله القرويين تشبه عادات أهل قرية باسم، لكنّ والده موظف في إحدى الدوائر الرسمية. تذكّر جورج عندما تعرّف الى باسم الحزن الذي أصابه لدى مغادرته البلدة الى معهد المكفوفين. قال له حينذاك: أنا أيضاً حزنت وبكيت عندما جئت الى هنــا. وهذا طبيعي، خصوصاً لأشخاص مثلنا. ولكن لا تخف. لن يمضي أسبوعان حتى تختلف الأمور.

كان جــورج على حــقّ. فباسم سرعان ما تآلــف مع المعهد وجــوّه، واعتاد هذه الحيــاة شبه الجماعية التــي كان يجهلها. وقد ساعده رفيقــه جورج على تخطّي المصاعب النفسية التي واجهته. لكنّــه لم يستطع طوال الأشهر الأولــى أن يعقد صداقات كثيرة مع

تلامذة المعهد. كان يشعر بأنّه غريب ولم يكن سهلاً عليه أن يتجاوز هـذا الشعـور بالغربـة. ولعل طبعـه الخاص وشخصيتـه المرهفة والخجولـة ساهما في إذكاء هـذا الشعور بالغربة. لكنّ الشعور هذا لـم يلبـث أن تلاشى بعدما اكتشف باسم المعنـى الحقيقي للحياة في المعهد، وصار في مقدوره أن يقرأ ويكتب على الكومبيوتر.

عندمـا حلّ الربيع وبدأ الـدفء ينتشر والسماء تنقشع بزرقتها والشمس ترسل أشعتها الصفـراء، باشر أستاذ الرياضة في المعهد بتشجيـع التلامـذة على خوض التمارين في الخـارج، والركض والمشي السريع، ولعب الكرة وسواها. وأعلن أنّ حوض السباحة سيُملأ ماء بعد أسبوع وعلى التلامذة أن يستعدّوا للمغامرة.

كان المعهـد يولي الرياضة البدنية اهتماماً كبيراً. فالمكفوفون يقضون معظم وقتهم في الداخل، جالسين ونادراً ما يتحرّكون، ما عـدا الخطوات التي يمشونها بين الغرف وفي الممرّات الداخلية أو الساحـات الخارجية. وكان لا بدّ من تشجيعهم على الرياضة، كي يحرّكـوا أجسادهم وعضلاتهم فلا يصابوا بالتعب والكسل الناجمين عـن قلـة الحركـة، ولا بالإحباط والـذي يحدثه الخمـول. كانت الرياضـة مادّة من موادّ الدروس التـي يُجبر التلامذة على تلقّيها، مـا عدا التلامـذة المصابين بعاهة في الجسـم تعوّقهم عن الحركة. وكان التلامـذة يهوون الرياضـة ويتحمّسون لها وينتظرون حلول فصل الربيع كي يخرجوا إلى الملاعب في الهواء الطلق ويمارسوا الرياضـة التي يحبّونها والتي تختلف عـن التمارين الجسمانية التي يمارسونها في الملعب المسقوف والصغير في الشتاء.

كان باسم يحبّ المشي في الطبيعة، في الحقول والغابة، بين

الأشجـار وعلى الدروب المتعرّجة. كان يتسلّـق مع رفاقه أحياناً بعض السفوح الخفيضة يمسك بيده واحد من رفاقه، خصوصاً بين الحجـارة والصخور، لئلا يتعثّر أو يقع. ولم يكن باسم يخجل من إمسـاك أيدي رفاقـه الذين يعاونونه، كلّ بـدوره في تلك الأمكنة الوعرة، مع أنه متين الجسم، صلب، وشجاع. لكنّ هذه المشاوير الصعبة كانت نادرة، فأمّه كانت تخاف عليه كثيراً ولكن من دون أن تجعلـه يحسّ بهذا الخوف. هذا مـا ردّده لها الطبيب الذي كان يعايـن باسم في طفولته. وكان يقـول لها: اعتبريه مثل أشقّائه، لا تجعليه يشعر بالنقصان ولا بالضعف. كانت أمّه تحمل هذا الخوف في قلبها منذ صغرها. فأهلها طالما تحدّثوا أمامها عن جدّها الأعمى الذي وقع في البئر. وسرعان ما تذكّرت هذا الجدّ الذي لم تعرفه جيـداً لأنهـا كانت في الثالثة من عمرها عندمـا مات. لكنّها سمعت أهلهـا، يتحدّثون عنه طوال سنوات. وقـد عمد والدها الى إغلاق هذه البئر بالحجارة حزناً على أبيه.

كانـت الأم قد تذكّرت جدّها للفور عندمـا أعلمها زوجها بأنّ ابنهـا البكـر ضرير. بكت كثيـراً وشعرت بأنّها هـي التي أورثت ابنهـا هذا المرض. لكنها لم تتخلّص من عقدة الذنب هذه إلاّ عندما أخـذت بمشيئة الله، هي المـرأة التقية، الشديدة الورع. أما حادثة جدّهـا فلم تتمكّن من نسيانها وصارت تتذكّرها كلّما خرج باسم الى النزهة في الطبيعة مع رفاقه. وما كان يطمئنها أنّ الآبار في القرية أُغلقت ولم تبق أيّ حاجة اليها، ما عدا بضع منها، ما برحت قرب المنازل ولا يمكن الوصول اليها.

أحبّ باسم ساعات الرياضة في المعهد، فهي كانت متنفّساً له،

ودافعـاً على الحركة. كان يركض مع رفاقـه في الملعب، أيديهم متشابكـة والأستـاذ أمامهـم. كان يقفز فوق الرمـل أيضاً، ويقوم ببعض الألعاب»البهلوانية»، كما تُسمّى، مستخدماً قدميه ويديه خير استخـدام. لكنّه لم يجـرؤ على تعلّم السباحة في الحوض. لم يصرّ عليـه معلّـم الرياضة في البدء. أخبره باسم أنّـه يخاف الماء كثيراً ولـم يكـن ينزل في النهر في القرية، بل كان يكتفي بالجلوس على الضفـة، ورفاقه يسبحون ويلعبون بالمـاء. كان أحد أطفال القرية قـد غرق فـي النهر. سها عنه والده الـذي كان يسبح فجرفه الماء الـى البركة الكبيرة التي كانت تستخدم للريّ، فغرق فيها. حزنت القريـة كثيراً على غرق هذا الطفل، وراح الأهل يمنعون أولادهم من الذهـاب الى النهر. كانت الحادثة أليمة جداً وقد حرمت أولاد القريـة من السباحة فـي الماء لأسابيع، مع أنّ البقعة التي يسبحون فيهـا لم تكن عميقة، فهي أشبه بالحفـرة التي يعبرها النهر ويتجمّع فيها الماء مشكّلاً ما يشبه الحوض المائي. لكنّ الطفل اقترب سهواً من طرف الحوض فجرفه النهر معه.

كان باسـم في السادسة مـن عمره عندما غرق الطفل. منعته أمـه مـن الذهاب الى النهر طوال سنة. ثـم راح يذهب مع أشقائه وأبنـاء عمّـه، وكان يكتفـي بالجلوس علـى الضفـة، مستمعاً الى خريـر الماء الذي كان يميل إليـه كثيراً، والى صرخات الأولاد، يسبحـون ويلعبون. كان هو يفكر دوماً بالطفل الذي جرفه النهر. يسـأل نفسه: كيف جرف الماء هذا الطفـل والى أين؟ ويسأل: الى أين يذهب النهر أصلاً؟

تذكر باسم هذه الحادثة عندما بدأ رفاقه السباحة في الحوض.

تذكرها وعاوده الخوف من الغرق. كيف يسبح وهو لا يبصر أمامه ولا وراءه؟ كان يسمع أصوات رفاقه يسبحون فرحين مبتهجين بالماء ويفكّر: هل سيقدم يوماً على السباحة في هذا الحوض؟

لم يرضَ معلّم الرياضة أن يظلّ باسم خائفاً من الماء وعاجزاً عن السباحة. قال له مرّة: ألا تثق بي، يا باسم؟ أجابه: أجل، إنني أثق بك كلّ الثقة. قال المعلم: إذاً سنسبح معاً اليوم. وافق باسم وارتدى لباس البحر ونزل الى الحوض برفقة معلّمه، يده في يده، ورجله قرب رجله وراح يشرح له كيف عليه أن يطفو على سطح الماء، مرخياً جسمه كلّه ويديه ورجليه. ساعده على إجراء التمارين الأولى وعندما انتهى قال له: غداً الدرس الثاني.

توالت الدروس خلال أسبوع وإذا بباسم يتعلّم المبادئ الأولى في السباحة، متجاوزاً خوفه القديم. وبات يلعب في الماء مع رفاقه، يسبحون ويفرحون متنعّمين ببرودة الماء في الطقس الحار.

تردّد باسم في إعلام أسرته بنجاحه في تعلّم السباحة. قال في نفسه إنّ أمّه ستظل مشغولة البال إن هي عرفت، مع أنّ الحوض في المعهد ليس عميقاً والماء لا يتحرّك. قال: عندما تأتي في زيارتي سأريها الحوض وأقول لها: ابنك أصبح سبّاحاً.

أما أكثر ما فاجأ باسم في ميدان رياضة المكفوفين فهو لعبة الكرة التي تحمل في داخلها جرساً. هذه اللعبة لا يحترفها سوى المكفوفين وتُسمى بالانكليزية «غول بيل». وقد أخبرهم عنها معلّم الرياضة وشرح لهم طريقة اللعب بها. وكان بعض تلامذة المعهد ويُجيدونها تماماً وقد شاركوا في مباريات عدّة وفازوا مراراً

وأحرزوا ميداليات. تقضي هذه اللعبة بأن يكون عدد اللاعبين فيها ستــة وأن يتراوح الملعب بين ثمانيــة عشر متراً طولاً وستة أمتار عرضاً وأن تظلّ الكرة على سوية مع أرض الملعب فلا تُرمى ولا تُقـذف عالياً. أما اللاعبــون فعليهم أن يغطّوا عيونهم بقماشة تُربط على رأسهم فيجرون ويلحقون الكرة من خلال رنين الجرس فيها. وبينهم يتوزّع الحكّام، يرافقون اللاعبين ويراقبون حركة الكرة. كان باسم يرافق فريق المعهد في مباريات هذه الكرة، ويجلس مع الجمهـور ويحمّس الفريق المؤلف من ثلاثة لاعبين. وكان الحكّام يطلبــون مــن الجمهور عــدم إحـداث ضجة كي يتمكّـن اللاعبون مــن سمــاع جرس الكرة. كان باسم يتخيـل اللاعبين في الملعب، يركضون ويمرّرون الكرة بعضهم لبعض وهم لا يبصرونها. كان يقـدّر هؤلاء اللاعبيـن جميعاً لشجاعتهـم وجرأتهم في خوض هذه المبــاراة. ومــا كان يحيّره هو تغطية عيونهـم بالقماش، فما داموا مكفوفين فلماذا تُغطّى عيونهم؟

سـأل باسم معلّم الرياضــة عن هذا الســرّ، فأوضح له قائلاً: هـذه اللعبة تقتضي على اللاعــب أن يكون مكفوفاً تماماً أو ضريراً مئــة في المئة. وبما أنّ هناك مكفوفين يبصرون قليلاً بنسبة خمسة بالمئة أو أكثر قليلاً فإنهم إذا شاركوا في هذه اللعبة يكونون قادرين علــى أن يبصروا الكرة أو طيفها ولــو بصعوبة. هكذا فُرِض على اللاعبين جميعاً أن يعصبوا عيونهم كي يتساووا في أرض الملعب، ثم كي يتمكّنوا من التركيز على صوت الجرس فيلحقون بالكرة.

كان في المعهد تلامذة مكفوفون يستطيعون أن يروا ما حولهم فــي شــكل طيفي. لا يبصرون الأشخاص ولا الأشياء بل أطيافاً،

وهـي أطياف مغبشـة في الغالب. وكان تلامـذة آخرون يقدرون أن يقـرأوا عبر العدسة المكبرة أو المجهر، يضعونه على الصفحة ويرصـدون الأحـرف والكلمات والجمل. كان هـؤلاء مكفوفين، ولكـن مع قدرة علـى الرؤية المشوّشة التي تحـول دون الإبصار الكامـل. كانوا يقرأون أحيانـاً بصوت عالٍ متيحين لرفاقهم فرصة الاستماع الى الدروس، عوض أن يتابعوها عبر «البرايل».

كان باسم فـي جلسات الاستراحة أو السهرات الباكرة يستمع الـى بعض رفاقه المكفوفين يتحدّثون عن حالاتهم الخاصّة. أحدهم أخبـر مرّة كيـف أنّه فقد البصر في الرابعة مـن عمره إثر مرض أصـاب عينيه. وقال إنّه ما زال يتذكّر الكثير ممّا أبصره صغيراً، مـع وعيه التـام عاماً بعد عام، بتطوّر العالم الذي كان يدركه من خـلال السمـع واللمس. كان يحدّثهم عن الألوان التي لم تغب عن ذاكرته، عن أمه وأبيه وشقيقه، عن الهرة البيضاء في منزلهم... كان باسـم يستمع إليـه بدهشة متخيّلاً ما يذكره وإن بصعوبة. كان فـي المعهد أيضاً فتى فقد بصره في السابعة من عمره جرّاء سقوط قذيفـة على المنزل، فجرحت شظاياهـا عينيه وشوّهتهما. كان هذا الفتـى، كما علم باسم، يضع على عينيه نظّارتين ولم يكن يخلعهما إلا عندما ينام. لم يشأ باسم أن يستخدم النظارات مثل بعض رفاقه، فهـو كان يحبّ عينيه ويلمسهما. أما الآخرون فكانوا يخفون وراء النظـارات التشوّهـات التي تصيب أحياناً عيـون المكفوفين، نتيجة الأمراض التي تحلّ بالعيون.

شارفت السنة الدراسية على نهايتها وبدأ الحرّ يشتدّ ولم يبقَ أمام التلامذة سوى أسبوع كي ينهوا الدروس والامتحانات ويغادروا من ثمّ الى بلداتهم وقراهم لقضاء فصل الصيف. ولم ينتصف شهر حزيران حتى راح التلامذة يعودون مع أهلهم الى منازلهم. كان بعض التلامذة يقضون أشهر الصيف في المعهد لأسباب عدة، فمنهم مَن كانوا أيتاماً ومنهم مَن كان أهلهم في حال من الفقر المدقع، وغير قادرين على الاعتناء بهم، فكانوا يزورونهم في المعهد وكأنّ المعهد أضحى بيتهم. وكان المعهد يرحّب بأي تلميذ يريد أن يبقى فيه طوال الصيف.

جاء عباس، عمّ باسم، باكراً في ذلك اليوم، ليصطحبه معه الى القرية، بعد ما سبقته الأسرة كلّها إليها. كان باسم قد هيّأ حقيبته ووضّب كلّ ما يريد أن يأخذه معه. ناداه يوسف فخرج وكان عمّه بانتظاره. ركب باسم السيارة بعد ما ودّع يوسف وسائر الموظفين. وما إن انطلقت السيارة حتى فتح النافذة كي يستنشق الهواء. كان يحبّ كثيراً الهواء الذي يدخل منها، قوياً وناعماً في آن واحد، فيصفع وجهه ملامساً عينيه. لم تمضِ ساعة حتى بدأ باسم يتنسم روائح الطبيعة، وكانت كلّما صعدت السيارة ازداد عبق الأرض والشجر والنبات.

كان باسم يحلم بهذه العطلة الصيفية. لقد اشتاق فعلاً الى القرية، الى أهله وأقاربه والرفاق الذين كانوا في انتظاره. اشتاق

الى المأكولات التي تحضّرها أمه، الى الجلسة على المصطبة، الى الليـل النديّ والنسيم المنعش. اشتاق الـى الحقول والغابة وخرير النهر، الى الشمس والقمر والنجوم التي يتخيّلها في السماء. اشتاق أيضاً الى صوت ابنة عمّه زينب تقرأ له القصص.

عندمـا نـزل من السيـارة ركضت أمّـه صوبـه وضمّته بين ذراعيها وقبّلته كثيراً. كان الجميع في انتظاره، هم اشتاقوا ايضاً، وخلال العام الذي مضى عرفوا معنى حضوره الذي يملأ البيت. الأب منيـف وشقيقاه أحمد وسهيل وشقيقته زهرة، عانقوه بحرارة وقبّلـوه، وكذلك أبناء عمّه. شعر باسـم بالسعادة في هذه العودة. فهـو سيقضي نحو شهرين هنـا، وسيستعيد أيامـه الماضية، ولكن بإحساسـ جديد، فهو كبر عاماً وأصبـح أشدّ رصانة، بعدما كسب الكثيـر من الأمور فـي المعهد. وأكثر ما تعلّـم أن على المرء أن يستفيـد من وقته. هذا ما ردّده الأستاذ على مسامع التلامذة، وهذا مـا أدركه باسم بالفعل، فاستطاع خلال هـذا العام أن يتعلّم قراءة «البرايل» والكتابة على الكومبيوتر. وخلال هذا العام استطاع باسم أيضاً أن يحفظ دروس القواعد العربية ويتقن الإملاء والإنشاء من دون أخطـاء، مما جعل استاذ العربيـة يهنّئه على هذا النجاح غير المعهود.

شعـر باسم بعـد عودته الى القرية أنّه كبـر حقاً. حتى أسرته شعرت بذلك وخصوصاً أمّه. أحسّت أنّ ابنها تقدّم كثيراً ولم يبق ذلـك الفتى الذي كانـه. أصبح هادئاً، شديد التهذيب، لا ينفعل ولا يتذمّـر، يتكلّم بفطنة ويصغي الى مَن يكلّمه باحترام، يوجّه أشقاءه من دون تكبّر، يناقش رفاقه ويقنعهم بتواضع تامّ...

أحضـر باسـم معـه بضعة من كتـب «البرايل» ومـن الكتب المسموعة، بعدما نال موافقة المديرة، وهمّه ألاّ يضيع وقته سُدى في القرية. وقد سرّت المديرة منه كثيراً لأنّ تلامذة المعهد، نادراً ما يأخذون معهم الكتب عندما يذهبون في عطلة الصيف.

في القرية توزّعت أيام باسم، بين النزهات واللعب والقراءة. وكانـت أجمـل ساعات النهـار تلك التي يقرأ فيهـا كتب «البرايل» ويستمع الى الكتب المسموعة. كان يجمع أشقاءه من حوله ليريهم كيـف يقرأ هذه الأوراق ذات النقـاط النافرة، بأصابعه. كان يقرأ لهـم بعض القصص بصوت عالٍ وكانوا هم يفاجأون به وبأصابعه التـي تمرّ على النقاط النافرة. وضع شقيقه أحمد أصابعه على هذه الأوراق وتحسسها بسرور، مع أنه لم يفهم سرّها. شرح لهم باسم طريقـة رسم الأحرف بالنقاط النافرة وصـار يمرّر أصابعهم بيده عليهـا ليوضح لهم كيـف تتمّ القراءة. أما الكتـب المسموعة فكانوا يجلسـون حـول الآلـة الصغيرة التي يضـع فيها باسـم الاسطوانة ويستمعون الى الصـوت المسجّل يقرأ القصص. كان ذاك اكتشافاً جميـلاً لهـم، هم الذين كانوا يستمعون الـى الأغاني تطلع من مثل هذه الاسطوانة، لدى جيرانهم. فهم لم يكن لديهم سوى التلفزيون الـذي كان يسلّيهـم ببرامجه المتنوّعـة. أما الراديو فـكان والدهم يستمع إليه وكثيراً ما كانت تهمّه الأخبار.

كانـت زينب جلبت معها كتباً وروايـات صغيرة، إضافة الى «دفاتر الدروس الصيفية» التي كانت تفرضها بعض المدارس على تلامذتها في الصيف، فيظلّون على معرفة بما درسوا خلال الشتاء ويهيّئون أنفسهم للموسم الدراسيّ المقبل. كانت زينب فكّرت بباسم

عندما اشتــرت القصص والروايات فهو يحبّ الاستماع إليها وهي تقــرأ لــه، وهي تحبّ كثيــراً أن تقرأ له ولنفسها فــي وقت واحد. وكانــت أوقاتاً جميلــة جداً تلك التي كانت تقرأ لــه فيها، وكان هو يبادلهــا بالمثــل فيقرأ لها في كتــب «البرايل»، وبعضــ ممّا يقرأه كانــت قرأته سابقــاً. فزينب تحبّ القراءة مثــل باسم وهي مجتهدة جــداً وحلّــت هذه السنــة الأولى فــي صفّها ونالت تهنئــة الإدارة. وكانــت بدأت تتحضّــر لتقديم الشهادة المتوسطــة «البريفيه» السنة المقبلــة. والامتحانات الرسمية تتطلّب مزيــداً من الدرس والحفظ والتركيــز. وكانــت تنتظر هــذه السنة لتثبت جدارتهــا، واثقةً من نفسهــا كلّ الثقــة. لقــد زرع فيها باسم مــن دون أن تدري، حبّ الدرس والقــراءة، وشجّعها على المثابرة والاجتهاد. وقد وجدت هــي فيــه مثالاً للفتى المتحمّس للدراسة والــذي تحدّى ظروفه بغية تحقيق طموحه. وكانت تعتقد أنّ باسم سيكون له مستقبل مهم على رغم فقدانه البصر.

عندما جلســا على الكنبة ليتبادلا القراءة لاحظ باسم أن زينب جلســت بعيدة عنه قليــلاً، على خلاف ما كانا يجلســان في السابق وكأنّهمــا شقيــق وشقيقته. كان هو يجلس علــى الطرف وهي على الطــرف الآخر. قــال باسم في نفســه: ما أشدّ تهذيــب زينب! لقد كبــرت فعــلاً وباتت تنتبه الــى نفسها. عندما وجدتــه زينب ساهماً يفكّر أدركت للفور ما يفكّر به، لكنّها لم تبح له بأمر. وكانت أمّها أبلغتها يوماً، أنّها أصبحت يافعة وعليها أن تتعامل بحذاقة واحترام مع أولاد عمّها وأولاد الأقارب وكلّ الفتيان. «لقد أصبحتِ كبيرة يا ابنتي»، قالت لها. وفهمت زينب تماماً ما تقصد أمّها.

كانـت جلسـات زينـب وباسم تتكـرّر وأحيانـاً ينضـمّ إليهم أشقّاؤهمـا، فيجلسون جميعاً ويصغون إمّـا الى باسم يقرأ لهم وإمّا الـى زينب. وكانوا إذا احتاجوا الى تفسير كلمة أو جملة يسألونهما فيفيضان في الشرح وكأنهما يعلّمانهم في الصف.

كانـت الروايـات والقصص قد بـدأت تختلف عـن السنوات السابقـة. حتـى الكتب التي أتـى بها باسم كانت مختلفـة. أما كتب زينب فلم يكن باسم سمع بها من قبل، بعضها لكتّاب عرب وبعضها لكتّاب عالميين وقد ترجمت الى العربيـة. أما كتاب القراءة الذي كانـت زينب تدرس فيه فيضمّ نصوصاً أدبية كثيرة وقصائد لكتّاب وشعـراء عرب. وقالت له زينب إنّ هـؤلاء الكتّاب والشعراء هم من الكبار في العالم العربي. وكان باسم يلحّ عليها بأن تأتي بكتب اللغـة الانكليزيـة لتقرأها أمامه، كي يستفيـد منها. لكنّ كتب زينب بـدت صعبة عليـه، فكانت تكتفي بأن تشرح له المبادئ الأولى في القواعد الانكليزية التي راح يستوعبها شيئاً فشيئاً.

أمـا النصوص والقصائد العربيـة فكانت زينب تقرأها له أكثر من مـرّة وكان يتعلّـم الكثير من المفردات الجديـدة وكان يعجب بمضمـون هـذه النصوصـ والقصائـد وبأسلوبها. فهـو بات يجيد التمييـز بيـن أسلوب وآخر كما تعلّم فـي المعهد مع رفاقه. وكانت النصوصـ والقصائـد مرفقـة بأسئلة يجـب على التلميـذ أن يجيب عليهـا. وكـم أمضى باسم وزينب من أوقـات يتباريان خلالها في الإجابة على هذه الأسئلة. وكانت زينب تلجأ الى «معجم الطلاب» لتبحـث عن معنـى كلمة لم يتمكّن كلاهما من فهمهـا. وبينما كانت زينـب تقرأ له في كتابها، منتقلة من نص الى آخر، وقع اختيارها

علـى مقطـع من كتاب «الأيـام»، وما إن باشرت فـي قراءة هذا المقطع حتّى انتفض باسم وقاطعها قائلاً: أعيدي قراءة هذا النص، إنّـه يتحدّث عن فتى مكفوف. فأعادت قراءته مرّتين وذكرت اسم مؤلفه وهو طه حسين.

سألها باسم: هل تعرفين مَن هو هذا الكاتب؟

قالت له: أعرفه بالاسم فقط، وهذا المقطع من كتابه «الأيام». هذا كلّ ما أعرف عنه.

حفظ باسم هذا الاسم جيداً، فهو أحبّ كثيراً هذا المقطع الذي يـروي قصـة فتى ضرير فـي القريـة، وأكثر ما جذبـه أن الفتى الضرير هو نفسه الذي يتحدث عن نفسه وعن المدرسة التي يسمّيها «الكُتَّاب» وعن بيته القروي والسياج الذي كان يأسره ويمنعه من الخـروج الى المزرعة التي كان الأولاد يلعبـون فيهما. ظلّ اسم طـه حسين ماثلاً في ذهن باسم وقـرّر أن يسأل عنه أستاذ العربية فـي المعهد بعد عودته. فقـد تأثر كثيراً بفكرة أن يكون هذا الكاتب الكبير ضريراً منذ الطفولة.

انقضـى فصل الصيف وغادر باسـم أسرته والقرية عائداً الى المعهـد. كانت ملامح الخريـف بدأت ترتسم فـي الأفق، فالهواء أصبـح بارداً قليـلاً وأوراق الأشجـار في القرية بـدأت تميل الى الاصفـرار، وباتـت الشمـس تغـرب باكراً. ومثلما غـادر باسم، غـادرت أيضاً أسـرة عمّه، فالمدارس ستفتـح أبوابها قريباً ولا بدّ من الاستعداد لعودة أبناء عمه إليها، لا سيما زينب التي أمامها سنة تتطلّـب الكثير من الدرس لأنهـا ستتقدم في نهايتها الى الامتحانات الرسمية.

لم يشعر باسم هذه المرّة بالحزن الذي اعتراه السنة الفائتة عندما انتقل الى المعهد للمرّة الأولى. ودّع أمه ثمّ شقيقيه وشقيقته وأوصاهم بالاعتناء بدروسهم وقال إن قلبه معهم. قبّل أمه كثيراً قبل أن يركب في السيارة مع أبيه، ثم انطلق السائق بهما. ومن الزجاج الخلفي راح باسم يلوّح وعلى وجهه ابتسامة رقيقة.

عاد باسم الى المعهد وراح يستعيد حياته التي قضاها العام الماضي في أرجائه. كلّ الأمور كانت على حالها، وكان رفاقه قد عادوا أيضاً، ويستعدّون الآن لبدء الدروس. وقد التحق بالمعهد تلامذة جدد من أعمار مختلفة، كما أخبره يوسف. سأل باسم يوسف:

- هل قضيت فصل الصيف هنا؟

- أجابه يوسف:

- حصلت على إجازة صغيرة، ذهبت خلالها الى قريتي.

قال له باسم:

- ألا تفكّر في الزواج يا يوسف؟

ضحك يوسف وقال:

- أصبحت في الثلاثين وقد ألحّ علي أبي وأمي كثيراً في مسألة الزواج. ووعدتهم خيراً.

كان باسم يعلم أنّ يوسف يميل الى إحدى الموظفات في إدارة المعهد وهي بدورها تميل إليه وتقدّر فيه تفانيه في عمله داخل

المعهد، وقد كرّس له معظم وقته. فهو يقيم في المعهد مثل التلامذة ويعاونهم ويسهر عليهم ويدرّب التلامذة الجدد على طريقة العيش في المعهد. وكانت الموظفة التي تدعى دلال تنتمي الى «الهيئة اللبنانية لمساعدة المعوّقين» وقد بذلت الكثير من الجهد والوقت في هذا العمل الإنساني. وقد اختارتها إدارة المعهد ووظّفتها تقديراً لخبرتها في حقل المكفوفين.

راح باسم يواصل دروسه في اللغة العربية واللغة الانكليزية وعاد الى قراءة «البرايل» والطباعة على الكومبيوتر. وكان قد قرّر هذه السنة أن يقضي بعض ساعات فراغه في «المحترف اليدوي» الذي يقوم في الطابق السفليّ من المعهد وهو مخصّص للمكفوفين الذين لا يتلقون الدروس ومعظمهم بين العشرين والثلاثين من العمر. يقوم هؤلاء المكفوفون بأعمال حرفية أبرزها صنع السلال والكراسي والصناديق والعلب من مادّة الخيزران والقشّ المُقوّى، ويشرف على المحترف هذا ثلاثة حرفيين يسمّون عادة بـ»المعلّمين». فهم يُديرون ورشة العمل ويوزّعون الأشغال على المكفوفين ويضعون التصاميم والهياكل الأولى ثمّ يسلّمونها الى المكفوفين الذين يعملون على تنفيذها. ومعظم المكفوفين أصبحوا ذوي خبرة في هذا العمل اليدوي، يعملون بمهارة، متلمسين الأشكال التي بين أيديهم والتي يصنعونها من الخيزران والقشّ وأحياناً من القصب المقطّع.

زار باسم هذا المحترف أكثر من مرّة في العام الماضي، لكنّه قرّر هذا العام أن يتلقّى بعض التمارين الحرفية، فهو كان على يقين بأن هذا العمل فنّي مثلما هو حرفيّ. وكانت المديرة

والهيئــة الإدارية تمتدحان انتاج «المحترف» الذي كان يدرّ بعضاً مــن المال على المعهد. فالمصنوعات التي ينتجها تُعرض للبيع في صالات كثيرة، ويشارك المعهد بها في معارض تقام طوال السنة وغالباً ما تلقى رواجاً وطلباً. فصناعتها متينة وأشكالها جميلة وهي تلبّي حاجات البيوت والمطاعم وسواها.

كان باسم كلّما زار «المحترف» يتلمّس هذه المصنوعات بيديه متخيّلاً شكلها، وكان أحد «المعلّمين» يقول له إن ألوانها المتداخلة كالأحمر والأخضــر والأزرق تمنحها رونقاً. فالقصب كان يُطلى بهذه الألوان إضافة الى لونه الطبيعي الجميل.

جلســ باسم مرّة يقرأ في المكتبة فسمع الموظفة المسؤولة عن طباعــة كتــب «البرايل» تتبرّم من كثرة العمــل وتراكم النصوص التــي يجــب أن تطبعها على الكومبيوتر وتحوّلهــا من ثمّ الى نظام «البرايــل». كانــت هذه الموظفة وهي تُدعى نهــاد، تتولّى وحدَها هــذه المهمّة طوال السنة الدراسية. كانت تضع أمامها النصوص، بعضها بالعربية وبعضها الآخر بالانكليزية، فتطبعها وعندما تنتهي من كلّ نصّ تصل الكومبيوتر بآلة ملاصقة له فتتولّى تحويل النصّ المطبــوع الى نصّ «برايل». وكانــت الموظفة هي التي تدقق في تصحيــح النص المطبوع لئلا يحــوي أخطاء، أياً تكن، لأن الخطأ هنا ينتقل فوراً الى صفحات «البرايل». لم تكن هذه المهمة سهلة، فالموظفة هي التي تتولى كلّ هذه الأمور، وفي أحيان يأتي موظف آخر ليساعدها، فيقوم بقراءة النصوص لها فتطبعها بسرعة، موفّرة عن نفسها عناء قراءة النصوص.

فكّــر باســم: ما دمتُ قــد أصبحت قــادراً علــى الطباعة مثل

المحترفين، فلماذا لا أعرض عليها المساعدة؟

تردّد باسم، عندما سمع الموظفة تتبرّم قليلاً، في تقديم فكرته لها، لكنّه سرعان ما اقترب منها وقال لها:

- أتسمحين لي بمساعدتك أيتها العزيزة؟

- تساعدني، كيف؟ قالت له.

- لقد أصبحتُ ماهراً في الطباعة على الكومبيوتر، أطبع بالأصابع العشر وأحفظ غيباً كلّ مفاتيح الأحرف وتوابعها. ومتى تتعبين أستطيع أن أطبع بدلاً منك، وتتولّين أنت قراءة النصوص لي. لنجرّب، وإذا ارتكبتُ أخطاء في الطباعة، تتخلّين عنّي.

صمت باسم قليلاً، ثم أضاف:

- لكنني أجيد الطباعة بالعربية وليس بالانكليزية.

قالت له:

- النصوص الانكليزية قليلة، أما النصوص العربية فكثيرة.

جلس باسم الى طاولة الكومبيوتر وجلست نهاد على كرسي إلى جانبه، وراحت تقرأ له وهو يطبع. أنجز بضع صفحات وتوقف، وأشار إليها أن تدقق في الصفحات، عساها حوت أخطاء طباعية. راجعت نهاد الصفحات التي طبعها باسم فلم تجد أي خطأ، فسرّت. لكنها ما لبثت أن قالت لباسم:

- هذه وظيفتي وأتقاضى لها راتباً شهرياً. وينبغي عليّ ألاّ أزعجك. فأنت تلميذ وعليك أن تتابع دروسك.

قال لها باسم:

- أنت تعلمين يا سيّدتي أنّ لديّ الكثير من أوقات الفراغ، فأنا لا أتابع إلا دروس العربية والانكليزية علاوة على دروس

أخرى. وعندي الكثير من الوقت لأقرأ وأطبع وأكتب. وأنا أحبّ العمل معك لأنّه يفيدني كثيراً.

قالت له:

- سأسـأل المديرة، فهي المسؤولة، فـإذا وافقت تستطيع أن تساعدني.

في اليوم التالي طلبت المديرة من باسم أن يراها في المكتب. استقبلته بترحاب كعادتها، وسألته عن دروسه وحياته في المعهد. فأخبرهـا أنّـه على أحسن حـال، لا سيّما بعد أن تعلّـم الكتابة على الكومبيوتر وقراءة «البرايل».

قالت له المديرة:

- أخبرتنـي دلال أنـك ساعدتها في الطباعة وكانت مسرورة جداً منك لأنك لا ترتكب أخطاء في الطباعة. لا أخفيك يا عزيزي أن العمـل الـذي تقوم به دلال وحدها يتطلب موظفاً آخر يعاونها، لكنّ موازنة المعهد لا تسمح لنا بتوظيف أحد في هذه الآونة. فكّرتُ بـك، بعدما شجعتنـي دلال ووصفت لي فرحك بهـذا العمل، فهل يمكنـك أن تساعدها قليلاً في أوقـات فراغك؟ هل تستطيع أن تقوم بالطباعة؟ لكنّ لديّ شرطاً هو ألاّ تؤثّر هذه المهمة على دروسك. صحيـح أنّ دروسـك هي بالعربيـة والانكليزية وبقيـة المواد التي تحبّهـا والتي يمكنك أن تتابعهـا بحرية، لكننا لا نستطيع أن نلزمك بأيّ عمل إضافي، فأنت تلميذ هنا.

أجابها باسم مبتسماً:

- أنا في تصرّف الإدارة. لقد نجحت في امتحان الطباعة على الكومبيوتـر كما في قراءة «البرايـل». وأنا على أتمّ الاستعداد لمدّ

يـد العون، وجاهز للعمل والمساعـدة. فالمعهد هو بيتي والتلامذة إخوتــي. وأقول بصراحة يا سيّدتــي إنّني بحاجة فعلاً لأملأ أوقات الفراغ في مثل هذا العمل الذي يفيدني كثيراً. بل إنني مستعدّ أيضاً لقراءة بعضــ القصص المكتوبة على «البرايل» للتلامذة الصغار. أصبحت في الرابعة عشرة وأعتقد أنني قادر تماماً على القيام بمثل هذه المهمّات الصغيرة.

أُعجبــت المديرة بصراحة باســم وإخلاصه للمعهد، فهو تلميذ ناضــج، يحبّ رفاقه ويتفانــى في الدرس والعطــاء. وقد أعجبتها كثيراً فكرة أن يتولّى قراءة القصص للتلامذة الصغار.

قالت له:

- تستطيع أن تبدأ في عملك غداً، في أوقات فراغك. وسأبلغ السيــدة دلال بالأمــر، وسأتكلّم مع معلّمات التلامــذة الصغار في شــأن قــراءة القصص. ولكــنْ أودّ أن أعلمــك أن عملك لن يكون مجاناً. سنخصص لك مبلغاً صغيراً هو بمثابة هدية، نودعه باسمك في صندوق الإدارة.

فرح باسم كثيراً وقال للمديرة:

- لا يهمّنــي المــال يا سيّدتــي، كلّ ما يهمّني هــو أنّني بدأت تحقيق أحلامي.

وزّع باســم وقتــه بين دروســه وقراءاته الخاصــة والطباعة ولقائه بالتلامذة الصغار. كان سعيداً جداً بهذه الخطوة التي قام بها وبــدأ يشعر فعلاً بأنّ لديه مسؤولية يتعهّــد إنجازها على أتمّ وجه. ولــم يكن يشعــر بالتعب ولا بالملــل. فالطباعة أصــلاً لا تتعبه بل هــي تزيده تمرّساً في الكتابة على الكومبيوتر. أما قراءته القصص

للتلامذة الصغار فكانت تمثّل له متعة كبيرة، خصوصاً أنّه كان يستعيد القصص التي قرأتها له زينب في طفولته. ولم يكن باسم يقرأ دوماً القصص على «البرايل» بل كان يرتجلها معتمداً على ذاكرته القوية. وكان أحياناً يسرد هذه القصص باللغة العامية مسهّلاً على التلامذة مهمّة فهمها وحفظها. وكان التلامذة يتجاوبون معه، فرحين بالقصص والأبطال الذين كان يجيد باسم وصفهم. وكان يطلب من التلامذة أن يكرّروا ما سمعوا من القصص، فكانوا يفعلون بسرور وكان باسم متسامحاً معهم عندما يخطئون قليلاً.

كان باسم يشعر بأنّه أصبح بمثابة أستاذ، وإن كانت مهمّته قراءة القصص للصغار. هذا الشعور ولّد في نفسه حالاً من الطمأنينة، فهو بات يُعطي ولا يأخذ فقط، بات يساعد الآخرين مثلما ساعده الآخرون. أما في أوقات الطباعة على الكومبيوتر فكان يشعر بأنّه أصبح مسؤولاً، عليه ألا يرتكب الأخطاء. وكان يسرّ كثيراً بما كانت تقرأ عليه دلال فيتعلّم الكثير في الجغرافيا والتاريخ والتربية المدنية وسواها. وكان في عمله هذا يتحمّل قليلاً من العبء الملقى على كاهل دلال.

لم ينس باسم إسم طه حسين لكنّه كان يتحيّن الفرصة ليسأل عنه أستاذ اللغة العربية في الصف. فهو لم يكن يبغي إزعاج رفاقه لأنهم سيتقدّمون هذه السنة الى الامتحانات الرسمية وقرّر أن يصغي فقط الى الدروس والشروح التي يلقيها الأستاذ. وفي إحدى المرات ورد اسم طه حسين في «كتاب القراءة العربية»، فانتهز باسم المناسبة وسأل الأستاذ عنه، وقال له إنه اطّلع على نص له من كتاب «الأيام». سُرَّ الأستاذ من كلام باسم وراح يتحدث عن طه

حسين وعن كتاب «الأيام». وقرأ لهم النصّ الذي نشر في «كتاب القراءة» الخاص بالمكفوفين وقد اختير هذا النص من الجزء الأول من كتــاب «الأيام». كان النصّ هو نفسه الذي قرأته زينب لباسم ففــرح به. وعندما انتهــى الأستاذ من القــراءة راح يشرح النصّ ويحدّثهــم عــن طه حسين مسمياً إيــاه بـ«العبقري الضرير» وكيف استطــاع أن يتحــدّى مرضه ويبدع في الأدب. وقرأ لهم التعريف الموجــز به الــذي ورد في أسفل النص، فــإذا هو ولد عام 1889 فــي إحدى قرى الصعيد في مصر وتوفي عام 1973 في القاهرة. وقــد فقد بصره فــي الرابعة من عمره، إثــر إصابة عينيه بالرمد. وقد درس أولاً في كتّاب القرية ثمّ انتقل الى جامع الأزهر ثم الى الجامعة المصرية. وفي عــام 1914 أوفدته الجامعة المصرية الى إحــدى الجامعات الفرنسية ليكمــل دروسه ويحصل على الشهادات العاليــة. أما مؤلفاته فكثيرة، وتتوزّع بين الرواية والسيرة الذاتية والنقد الأدبي والتأريخ.

فرح باسم كثيراً في تعرّفه الى موجز حياة طه حسين وأصرّ على البحث عن الجزء الأول من كتاب «الأيام» في طبعة مسموعة أو فــي «البرايــل». وقد نصحهم الأستاذ بقــراءة الجزء الأول من هــذا الكتاب البديــع إذا وجدوه، وقال لهــم إنّ الجزءين الآخرين يقرأونهمــا لاحقاً عندمــا يكبرون. وكان هذا الجــزء من «الأيام» مدرجــاً في المدارس اللبنانية مثله مثــل كتب جبران خليل جبران وميخائيــل نعيمــة ومحمــود تيمور وتوفيــق الحكيــم وزكريا تامر وسواهم من الأدباء العرب.

إستأذن باسم الأستاذ وسأله:

- كيف كان يكتب طه حسين ويقرأ حتى تمكّن من امتلاك مثل هذه اللغة الجميلة؟

أجابه الأستاذ:

- كان يستعين بمن يقرأ له الكتب، بالعربية والفرنسية، أما عندما يكتب فكان يملي على مَن يدوّن له ما يلقيه عليه. لا أعتقد أن كاتبنا الكبير صاحب البصيرة اللامعة تعلّم القراءة بـ«البرايل»، فهذه الطريقة لم تكن منتشرة في فترة شبابه.

ثم سأل باسم الأستاذ:

- هل هناك كتّاب مكفوفون في الأدب العربي غير طه حسين؟

قال له:

- أجل، لقد قرأت قصائد كثيرة لشاعرين مكفوفين، الأول هو أبو العلاء المعرّي وهو عاش في العصر العباسي والثاني هو الشاعر اليمني الكبير عبدالله البردوني وهو كان مكفوفاً أيضاً وتوفّي قبل أعوام. وهناك أسماء كثيرة في تراثنا العربي القديم. لقد كان هؤلاء أشبه بالمنارات التي أضاءت عالمنا، نحن المبصرين. وقد عرفت الحضارة الإغريقية على سبيل المثل شاعراً كبيراً هو هوميروس، كان مكفوفاً وقد كتب أهمّ الملاحم الشعرية في تاريخ الانسانية.

صمت باسم، وقد حلّ به الرضا واطمأنّ بأنه يملك أملاً في الكتابة، كتابة القصص التي كان يميل إليها كثيراً. وقال في نفسه: سأحذو حذو هؤلاء وسأكتب ذات يوم قصصاً تتوجّه الى الصغار والكبار.

كان باسم يعلم في قرارة نفسه أنّه يملك موهبة الكتابة، لكنّه كان يحتاج الى الفرصة السانحة لكي يُظهر هذه الموهبة.

لـم يطـل انتظار باسم، فلـم تمضِ أشهر حتـى أعلنت «نقابة المعلّمين اللبنانيين» عـن تنظيم مسابقة لتلامذة الصفوف المتوسّطة فـي مدارس لبنـان، واشترطت على كلّ مدرسـة أن تختار تلميذاً واحـداً يتقدم الى هـذه المسابقة التي تشرف عليهـا وزارة التربية اللبنانيـة. عندمـا تلقت مديـرة المعهـد الرسالة مـن النقابة فكّرت للفـور بباسم مـع أنّه ليس من التلامـذة المسجّلين رسمياً، فهو من التلامـذة الملحقين بالصفوف المتوسّطـة. وجدت المديرة في باسم خيـر تلميذ يمكنه أن يمثل المعهد في هذه المسابقة التي يتبارى فيها تلامـذة من كل المدارس اللبنانية، ومنها مدارس عريقة وذات أقسـاط باهظة. فالمسابقة هي لـكلّ المدارس، الرسمية والخاصة، الكبيرة والصغيرة. وكلّ مدرسة حرّة في اختيار التلميذ الذي تشاء للمشاركة في المسابقة. أبلغت المديرة باسم بالأمر، ففوجئ وراح قلبه يخفق.

قالت له:

– أعـرف انّك فوجئتَ بهذا الطلب، لكنّـك أفضل تلميذ عندنا فـي اللغة العربية، وابدأ منذ الآن فـي التمرّن على كتابة مواضيع الإنشاء أو القصص القصيرة. وحاول أن تقرأ قدْرَ مستطاعك وأن تعـاود قراءة ما قرأته سابقاً. وسنختار كتباً مسموعة جديدة للمكتبة وفـي إمكانـك أن تستمع إليها جيداً وتعاود كتابـة مقاطع منها على الكومبيوتـر. أمامك شهر، فاستعدّ وإن شاء الله ستكون عند حسن

ظننا.

كان نظـام المسابقة يتألف من مرحلتين، في المرحلة الأولى يخضع كل التلامذة الذين سيشتركون في المسابقة لامتحان الإملاء. ثـمّ تختار لجنة التحكيم التلامـذة الخمسة عشر الفائزين في امتحان الإملاء ليتباروا في المرحلة الثانية، على كتابة نصّ أدبي أو قصة قصيرة، شرط ألا تقلّ المسابقة عن ثلاث صفحات. وهذا يعني أنّ علـى التلامذة أن يكونوا موهوبين جداً في الكتابة، كما في القواعد العربيـة. وكان هدف اللجنة المنظّمة أن تتأكد من قدرات التلامذة المشاركين، فقرّرت إقامة المسابقة في مرحلتيها تحت إشراف عدد مـن الأساتذة المراقبين. وهكذا يجـد التلامذة أنفسهم أمام أوراقهم البيضاء فيتبارون من دون مساعدة أحد.

التحـق باسـم بالتلامذة الذيـن اختارتهم مدارسهـم للمسابقة، وكانـوا مئة تلميذ مـن سائر مدارس لبنان. وكانـت مديرة المعهد طلبـت من لجنة المسابقة السماح لباسم باستخدام الكومبيوتر للكتابة عليه، فوافقت بكل ترحاب.

التقـى التلامـذة فـي أحد مراكـز الامتحانـات ووزّعوا على المقاعـد والطاولات وكان باسم قـد جاء برفقة يوسف الذي حضّر لـه الكومبيوتر وكلّ ما يتطلّبه الاشتـراك في المسابقة. تحدّث أحد أعضـاء اللجنـة الى التلامـذة، مشيراً اليهم بالحفـاظ على الصمت والهدوء ثم راح يملي عليهم نصّ المسابقة، وقد علم باسم للفور أنّه لجبران خليل جبران. كان الأستاذ يقرأ والتلامذة يكتبون بأقلامهم وباسم وحـده يكتب على الكومبيوتـر. وراح التلامذة يُلقون عليه نظرات ملؤها التعجب والتقدير.

انتهـت المرحلة الأولى من المسابقة. ولم يمضِ اسبوع حتى أُعلنـت النتائج وكانت فرحة المعهد كبيرة فقد حلّ باسم في المرتبة الثانيـة. نال باسـم تهنئة من المديـر والأساتـذة والموظفين ومن رفاقه جميعاً. واتصلت المديرة بعائلته وعائلة عمّه تعلمهما بالنتيجة الجميلة. وتحدّث باسم مع أبيه وأمه ومع عمّه وزينب وكانت ابنة عمّـه شديدة السرور، وقالت له إن التلميذ الذي تقدّم من مدرستها لم ينجح في الامتحان.

كان فـي إمكان باسم أن يحلّ في المرتبة الأولى لولا ارتكابه خطـأ فـي طباعة الهمـزة في كلمـة «يتـلألأ» فكتبها «يتـلاءلأ». وأوضحت لـه المديرة هذا الخطأ البسيط بعدما تلقت ورقة مسابقته مـن اللجنة وكانت قد طبعتها عن الكومبيوتـر. همّ باسم بالاعتذار عن هذا الخطأ، فسارعت المديرة وقالت له:

- لا تعتـذر، لقد رفعـت رأسنا عالياً. وإن شـاء الله سترفع رأسنا في المرحلة النهائية.

اختيـر التلامـذة الخمسة عشـر الأوائـل وراح أساتذتهم في المدارسـ يهيّئونهم لهذه المرحلة ويُخضعونهم لتمارين في الإنشاء ويطلبـون منهـم كتابـة المواضيـع والقصص ويصححـون لهم ما يكتبونـه في حضورهم. وانكبّ باسـم بدوره على التمارين، راح يكتـب ويكتـب ولم يخبر أحداً عن القصة التـي ينوي كتابتها. كان يريـد أن يفاجـئ بهـا الجميـع، الإدارة والأساتذة واللجنـة وأهله وزينب، ابنة عمّه. فهو كلّما تمرّن على كتابتها تذكّر زينب وكأن كلّ همّه أن تفرح به زينب التي كان لها الفضل الأول في مساعدته على تعلّم العربية وتغذية مخيّلته بالقصص الجميلة.

كان أمـام التلامـذة الخمسة عشر أن يعـودوا بعد أسبوع الى المركـز ليكتبـوا قصصهـم ونصوصهـم الأدبيـة والإنشائية تحت إشراف الأساتذة المراقبين. والوقت المتاح لهم هو ساعتان.

رافـق يوسف باسم أيضاً الى المركـز وساعده على الجلوس أمـام الكومبيوتر ثم تركه. وألقى عضـو اللجنة نفسه كلمة صغيرة رحّب بها بالتلامذة وقال لهم إن هذه المسابقة ستضجّ بها كلّ مدارس لبنـان ووسائـل الإعـلام والمؤسسات التربويـة. والتلامذة الذين سيفـوزون بالمراتب الثـلاث الأولى سيحظون بهدايـا وستكرّمهم وزارة التربية. وختم كلامه قائلاً: وفقّكم الله.

كان باسـم يعلم جيـداً ماذا سيكتب خـلال الساعتين المتاحتين للتلامـذة المتباريـن، فهو رسـم خطوط القصة فـي ذهنه وملامح الشخصيتيـن الرئيسيّتين، بل إنّه جهّز مقدمة القصة وحفظها. كان همّ باسم أن يستوحي الحال التي يعيشها هو المكفوف وأن يعبّر من خلالهـا عمّـا لا يستطيع أن يعبّر عنه مشافهة ولا سيّما حبّه البريء لابنـة عمّـه زينب الذي لم يبـح به يوماً لئلا يحـرج نفسه ويحرج زينب التي يكنّ لها كلّ الاحترام، مع أنّه يعلم في ما يشبه الحدس، أنّ زينـب تحبّه أيضاً ولكنْ بالسـرّ. وهذا الإحساس الغامض كان يوفّر له الكثير من الطمأنينة، نظراً الى صفاء قلبه.

أمـا القصّة فشاءها تـدور حول فتاة ضريرة يقع في حبّها فتى يكبرها عشرة أشهر وهما يسكنان في حيّ واحد من أحياء بيروت. يبـدأ هـذا الحبّ الطاهر منـذ الطفولة ويستمرّ أعوامـاً حتّى ينفصلا عندما تقرّر عائلة الفتاة الضريرة أن تهاجر الى استراليا مثلها مثل الكثيـر من العائـلات اللبنانية التي هاجـرت، وتهاجر، الى بلدان العالـم. سمّى باسم بطله شكيب وبطلته سلوى. وكان شكيب تلميذاً مجتهـداً فـي المدرسة وكان يساعد سلوى كثيـراً في دروسها التي تتلقاهـا في مدرسـة للمكفوفين في بيروت. كان يدرس معها ويقرأ علـى مسامعها دروسه والقصص التي يجبلها معه. وكانت هي في أحيان تصوّب له بعض العبارات التي يخطئ فيها سهواً. ولم يكن أهل سلوى يعارضون أن يدرّس شكيب ابنتهم في بيتهم. فالعائلتان

اللتـان تعيشان في حيّ واحد وفي بيتين شبه متلاصقين، كانتا على علاقـة وطيدة، أشدّ إلفة من علاقة القربى. فبيتاهما مفتوحان أمام الأسرتيـن، خصوصاً أن أولادهما كانوا فـي أعمار متقاربة. يقع شكيب في حبّ سلوى. كان يحبّها كثيراً، يحبّ وجهها ولو بعينين مطفأتيـن، يحـب شخصيتهـا وذكاءها، يحبّ طيبة قلبهـا وأخلاقها العاليـة، يحبّ إرادتها الصلبة وقوّتها التـي خوّلتها أن تتغلب على واقعهـا. كان أهل الحيّ معجبين بسلوى وشكيب، وكانوا يقدّرون هـذا الحـبّ الطفوليّ والنقيّ الـذي يكنّه لها والـذي تكنّه له. حتى الأسرتـان لم ترفضا هذا الحـبّ، ما دام حبّاً بريئاً. وكان في ظنّ العائلتين أنّه سينتهي متى تخطّى شكيب وسلوى أعوام الفتوّة. لكنّ شكيب كان يحبّها حباً جمّاً، يفكر بها دوماً، يخفق قلبه لمرآها.

تقـرّر عائلـة سلـوى ذات يوم السفـر أو بالأحـرى الهجرة الطويلـة، هربـاً من الحرب التـي راحت تستشـري في بيروت، فأسـف أهل الحيّ ولا سيّما أسرة شكيب. أما شكيب فأصيب بحزن شديـد افترسـ قلبه. ولم يستطع في لحظة الوداع أن يكبت دموعه فراح يبكي بصمت لئلا يزعج سلوى. لكنّ سلوى بكت أيضاً وأبكت أمها وأم شكيب.

كان شكيـب فـي الخامسة عشـرة من عمـره عندما غادرت سلوى الى اوستراليا مع عائلتها. راحت الأعوام تمضي، عاماً تلو آخـر، ولم يستطع شكيب أن ينسى سلـوى. كان وجهها ماثلاً في عينيه ومطبوعاً في قلبه. ظلّ يحلم بها طوال أعوام. كانا يتراسلان دوماً، لكن المسافة بينهما كانت كبيرة.

عندمـا بلغ باسم الثامنة عشـرة من عمره كان عليه أن يختار

اختصاصه الجامعي بعد أن حصل على الشهادة الثانوية. يفاجئ أباه ذات يوم قائلاً له: سأدرس طبّ العيون. لم يختر شكيب هذا الاختصاص إلا ليظل يتذكّر سلوى التي انقطعت عنه أخبارها بعد سنوات. كان لا يزال يحبّها ولو بالروح. كان يحلم دوماً بأنه أصبح طبيباً وأنّ سلوى جالسة أمامه ويعاين عينيها الجميلتين. ظلّ شكيب يحلم هذا الحلم حتى أصبح طبيباً. وكان يجد في وجوه الفتيات المكفوفات وجه سلوى، هذه الفتاة التي لم تغب عن باله حتى عندما أحب سواها.

كانت القصّة التي كتبها باسم أطول قصّة في المباراة. فهي تخطّت الصفحات الخمس واختار لها عنواناً مؤثراً هو «الفتاة ذات العينين الصافيتين». كتب باسم بغزارة وكأنّه يروي غليل قلبه. أخذت الكتابة يتدفق مثل نهر قريته. وكان هو آخر من سلّم المسابقة، وكان وحده مَنْ بقي في الصالة من التلامذة المتبارين.

بعـد أسبوع أُعلنت نتيجة المباراة فاحتلـت قصة باسم المرتبة الأولـى، وأوصـت لجنة التحكيـم بنشرها منفـردة وتوزيعها على تلامـذة الصفوف التكميلية في المدارسـ. كان فوز باسم بالمرتبة الأولى حدثاً في المعهد كما كان حدثاً في حياته. المديرة والأساتذة اعتبـروا هذا الفوز انتصاراً للتلامـذة المكفوفين، وبرهاناً على أنّ الآفة التي تحلّ بالإنسان لا تحول دون تحقيق أحلامه.

حـلّ باسم المكفوف في المرتبـة الأولى بين تلامذة المدارس فـي لبنان. وعندما قرأت المديرة والأساتذة القصّة التي كتبها باسم فوجئوا بكتابته السليمة الخالية تماماً من الأخطاء، وبأسلوبه البسيط والمتيـن في آن واحد، وبقدرتـه على الجمع بين الواقع والخيال. فالقصة التي استوحاها من واقع المكفوفين حلّقت في الخيال الجميل الطالـع مـن الوجدان الإنساني العميق. أمّـا باسم فكان فرحه بهذا الفـوز كبيراً جداً، فهـو أولاً استطاع أن يخطو خطوته الأولى في عالـم الكتابة، محقّقاً الحلم الذي طالما راوده، وتمكّن ثانياً من أن يعبّـر عن مشاعره الحقيقيـة التي يكنّها لابنة عمّه زينب، التي كان لهـا أثر كبير فـي حياته والتي ساهمت في بلـورة موهبته الأدبية، ناهيك عن إعجابه بها وبأخلاقها وحبّه الصادق لها. وقد يكون هذا الحـبّ الخفي وغيـر المعلن هو الذي زاد مـن عزيمته ودفعه الى خوض هذا التحدّي، وكأنّ هدفه هو أن يزيد من تقدير زينب له.

حمـل باسم الكتاب الصغير الذي ضـمّ قصته بين يديه وراح

يقلّبـه. كانـت الإدارة أسرعت في نشر القصّـة قبل أيام من موعد الاحتفال الرسميّ الذي قرّرت نقابة المعلّمين إقامته احتفاءً بالتلامذة الثلاثـة الذيـن فازوا بالمراتـب الثلاث. قلّب باسـم الكتاب وراح يلامسه بيديه. وصفت المديرة له صورة الغلاف الذي حمل اسمه وعنـوان القصّة، وأخبرته عن الرسـوم الداخلية التي تزيّنه والتي أنجزها أحـد الرسّامين من وحي القصة. سأل باسم المديرة: كيف يبدو شكل سلوى في الرسوم؟ أهي جميلة؟ هل وجهها يشع نضارة وبراءة؟ ضحكت المديرة وقالت له: لا تخف، سيحبّها جميع الذين سيقرأون القصة.

تحسّر باسم قليلاً لأنّه لم يكن قادراً على أن يبصر كتابه الأول. كان يؤلمـه أنَّ الكثيريـن سيـرون الكتاب ما عـداه هو ورفاقه في المعهـد. لكنّ عزاءه أنَّ أمّه وأباه وإخوته وكلّ الأقارب سيقرأون القصـة، وخصوصـاً زينـب. كان يتخيّل الشعور الـذي سيعتري زينـب وهي تفتح الكتاب وتقرأ القصـة. هل ستحبها؟ ماذا سيخطر في بالها؟

كان الاحتفال الذي أقامته نقابة المعلّمين في مقرّها جميلاً جداً ومؤثّراً. كان الجمهور غفيراً وضمّ ممثلين عن كلّ المدارس التي شـارك تلامذتها في المبـاراة، وأساتذة وتلامـذة وطلاباً ثانويين وجامعييـن، إضافـة الى الكثير مـن الأهالي ومـن ممثلي الهيئات المدنيـة والجمعيات والنوادي التـي تهتم بشؤون المعوّقين. وتوّج وزيـر التربية الاحتفال الذي أقيم برعايته بكلمة ألقاها، وركّز فيها علـى فوز باسم بالمرتبة الأولى واصفاً إيّاه بالتلميذ الموهوب الذي تحـدّى الإعاقة وحقّق نجاحاً باهراً في كتابة قصة بديعة. وقال إن

باسـم يجـب أن يكون قـدوة لجميع التلامذة والطـلاب، الأسوياء منهـم والمعوّقين جسدياً. وتحدّث في الاحتفال أيضاً نقيب المعلّمين ومديـر المعهد وطلـب من باسم والتلميذيـن الآخرين الصعود الى المسـرح ليتسلّموا الميداليات والجوائـز. وكانت جائزة باسم مبلغاً مالياً قدره مليون ونصف مليون ليرة لبنانية، علاوة على الميدالية ومجموعة من الكتب المسموعة.

كانـت والدة باسم ووالده يجلسـان في الصف الأول وخلفهما بقيـة الأقارب. بكت أمّـه كثيراً وبكى والده أيضـاً وعمّه وزوجة عمّـه، وبكت زينب... أما أشقاء باسَم وأبنـاء عمه فصفّقوا فرحاً وابتهاجـاً. الوالد والعم صفّقا أيضاً. إنهـا لحظة رائعة، أن تشاهد العائلـة ابنهـا المكفـوف فائزاً ومكرّمـاً أمام جمهـور غفير وتحت أضـواء الكاميرات. وعندما نـزل باسم عن المسرح ضمّوه جميعاً وقبّلـوه بحرارة واعتـزاز. أما هو فكان ينصت بدقة ليسمع صوت زينـب. وسرعان ما نادتـه قائلة له: مبروك، لقـد رفعت رأسك عاليـاً ورفعت رأسنـا جميعاً. وبكت ولم تستطـع أن تخفي بكاءها متأثرة كلّ التأثر بهذا الحدث.

لم يمضِ أسبوعان حتى أصدرت المديرة قراراً يقضي بتعيين باسم منسّقاً للغة العربية في الصفوف الابتدائية. هذا القرار تباحثت المديرة في شأنه مع أساتذة المعهد الذين وافقوا جميعاً عليه. وقال أحد الأساتذة في الاجتماع: لا تستغربوا إن قلت إنّ باسم يلمّ باللغة العربيـة مثلنا. وتقتضي هذه المهمة علـى باسم أن يدرّب التلامذة الصغـار على قـراءة «البرايل» وأن يتولّى قـراءة النصوص لهم وشرحها وتعليمهم القواعد وتركيب الجمل والإنشاء. أبلغته المديرة

بالقـرار فدمع، ثمّ قالت له إنّه سيُمنح مرتباً شهرياً متواضعاً يكون في تصرّفه. دمع باسم أيضاً وفرح فرحاً شديداً. وشعر أنّ مستقبله الذي حلم به كثيراً بدأ يتحقق.

لـم تكتفِ الإدارة بهـذه الخطوة تجاه باسم، بـل عهدت اليه مهمـة تقديم الاحتفالات التي يقيمهـا المعهد، سواء في مقرّه أم في المؤسسات والجمعيات. قالت له المديرة: ستكون يا باسم «خطيب» المعهد، فأنت تجيد الخطابة أفضل منّا جميعاً.

كان فوز باسم حدثاً حقيقياً في حياته. فهو بعد هذا الفوز ليس كمـا كان قبله. شعر فجأة أنّه كبر وأنّ مسؤوليات جمّة أُلقيت على عاتقـه، وهذا ما كان ينتظره أصلاً. لقد أصبحت حياته الآن ملؤها العمـل والعطاء، ولـم يعد يشكو من الفراغ. لقـد وزّع أيامه بين تعليـم الصغار والتمـرّن على الخطابة والارتجـال والطباعة على الكومبيوتـر والقـراءة والكتابة. وكانت الكتابة هـي الهمّ الذي بدأ يشغله، فكان يوليها الكثير من الاعتناء والاهتمام. وكان كلّما جلس أمـام الكومبيوتر ليكتب يتذكّر أنّ قدره هو أن يصبح كاتباً. الكتابة هـي التي ستمنحه أجمل فرصة لتحقيـق ذاته. لقد أمسى الآن واثقاً مـن نفسه بعدما انكبّ علـى القراءة، لكنّ هذه الثقـة بالنفس كانت تعني أن عليه أن يواصل جهده لكسب المزيد من المعرفة وللتمرّس في فنّ الكتابة. فكان يقبل أكثر فأكثر على القراءة والتعلّم.

أمـا الهمّ الآخر الـذي كان يشغل باله فهو حبّـه لزينب، هذا الحـبّ الذي كان يزيده شغفـاً في العطاء والعمل. كان باسم يجهل مصيـر هـذا الحبّ الذي لـم يبح به علانيـة، على رغـم يقينه أنّ زينـب تبادله المشاعر نفسها. كان باسم يفكّر بزينب دوماً، يتذكر

كلّ لحظـة أمضاهـا معها، يحفظ كلّ القصص التـي قرأتها له. إنه يحـبّ صوتها ويجد فيه الكثير من الحنان، يحب شخصيتها الهادئة والرزينة، يحبّ نظرتها المتفائلة الى الحياة... إنه يحبّها. لم يكن هذا الحبّ يعذّب باسم ويضنيه على غرار العشاق الذين قرأ عنهم، بـل كان هو يجد فيه عزاء لمعاناته كشخص لا يبصر. وكان يقول فـي نفسـه: سيأتي يوم تصبح عينا زينب عينـيّ اللتين أبصر بهما. ولكـن متى؟ متى يبادر في إعلان حبه لزينب؟ متى يُعلم أمه وأباه بهذا الحبّ؟

ذات صباح استيقظ باسم من نومه مذهولاً. لقد حلم حلماً جميلاً جداً، حلماً هو أجمل ما حلم به. لقد حلم أنّه يمتطي جواداً أبيض يجرّ عربة بيضاء تجلس فيها زينب مرتدية ثوباً شديد البياض. كان كلّ ما حوله أبيض، الشمس، السماء، الجبال، الأشجار والنهر... لم يبصر باسم هذا البياض بعينيه، أبصره بروحه، روحه النقية كالثلج. هذا ما شعر به. أجل لقد عانق هذا البياض ولمسه بيديه وتنفّسه وتنسّم عطره. لقد أبصر زينب تبتسم له، أبصرها بقلبه لا بعينيه.

نهض باسم من سريره ووقف أمام النافذة، فرك عينيه مذهولاً. كان في قرارة نفسه يشعر بفرح كبير. إنها المرّة الأولى ينشقّ هذا الظلام الذي طالما اكتنف عينيه، ويشرق في قلبه بياض في مثل هذه الرحابة وهذا النقاء.

ما أجملك أيتها الحياة، قال باسم، وانطلق الى العمل.

عبده وازن

شاعر وكاتب لبناني، مواليد 1957، يدير الصفحة الثقافية في جريدة «الحياة».

له الكثير من المؤلفات في الشعر والنثر السردي والنقد والترجمة. ومنها: «قلب مفتوح»، «أبواب الذم»، «سراج الفتنة»، «نار العودة»، «حياة معطلة».

وله كتاب عن الشاعر محمود درويش بعنوان «الغريب يقع على نفسه: قراءة في أعمال محمود درويش الجديدة». وله كتاب بعنوان: «شعراء من العالم».

صدرت له مختارات من شعره باللغة الفرنسية واللغة البرتغالية. وترجمت قصائد له إلى الإنكليزية والإسبانية. ترجم أعمالاً مسرحية وشعرية من الفرنسية.

الفتى الذي أبصر لون الهواء

رواية للفتيان

عبده وازن

• شاعر وكاتب لبناني

تحكي هذه الرواية قصة الفتى المكفوف «باسم» الذي يلتحق بمعهد للمكفوفين في الثالثة عشرة من عمره ليكتشف عالماً مختلفاً عن عالم القرية التي عاش فيها تلك الأعوام.

يبدأ «باسم» في المعهد حياة جديدة وينصرف إلى تعلّم اللغة العربية والقراءة على «البرايل» الخاصّة بالمكفوفين وكذلك الطباعة على الكومبيوتر. وخلال عامين يتمكّن «باسم» من تحقيق نجاح باهر لا سيما بعدما فاز بالجائزة الأولى في مسابقة القصة القصيرة التي نظمتها نقابة المعلّمين وشارك فيها تلامذة المدارس.

وفي هذه القصة استوحى «باسم» تجربته الشخصية كفتى مكفوف يكافح من أجل تحدّي الإعاقة وتحقيق الأحلام التي طالما راودته. والفتى بطل القصة، يعيش أيضاً مثل «باسم» قصة حبّ بريء تظل بلا نهاية.

لكنّ «باسم» الذي غادر قريته إلى المعهد القائم في المدينة، لا ينسى البتة حياته الجميلة هناك، فيستعيد عبر الذاكرة معالم الريف والطبيعة التي منحته الكثير من الحرية، حرية التنزّه في الحقول وفي الغابات والجلوس قرب النهر وسط هبوب النسائم.

إنها حكاية الفتى «باسم» الذي تحدّى ظلمة عينيه وحقق أحلامه. ولكن ماذا عن حبّه البريء والعميق لابنة عمه؟









تصميم الغلاف: سامح خلف